

اهدنا الصراط المستقيم

تأليف

فضيلة الشيخ

عادل نصر

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - أبو سليمان - شارع عمر - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

راسلونا على صفحتنا على الفيس بوك: «دار الخلفاء الراشدين»



اسم الكتاب: اهدنا الصراط المستقيم

اسم المؤلف: عادل نصر

القطع: ١٧×٢٤ سم

عدد الصفحات: ٢٧٢ صفحة

سنة الطبع: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٣٥٦٠م



دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧ - ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦

طبع • نشر • توزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنِ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن الهداية إلى الصراط المستقيم والثبات عليه حتى يلقى العبد ربه لنعمة عظمى هي من أجل نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، بل هي أجل النعم وأعظمها على الإطلاق، ولم لا وسعادة العبد الأبدية السرمدية مبناها على هذه الهداية؛ فبها يكون الفوز بالجنان والنجاة من لظى النيران.

ولما كانت تلكم النعمة الكبرى كسائر النعم هي محض فضل الكريم المنان على عباده، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، إذ القلوب بين أصبعين

من أصابعه تعالى يقلبها كيف يشاء، أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده أن يسألوه إياها في صلواتهم، وذلك في فاتحة الكتاب والتي لا تصح صلاة إلا بها ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

وإذا كان نيل تلكم الهداية وتوفيق العبد لها وعصمته من الزيغ فضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ وحده عليه، فإن حرمان العبد منها وخذلانه عدلًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما قال الإمام الطحاوي: «يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويُضِل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا».

ولئن كانت الهداية وشرح الصدور أمرًا لا يقدر عليه إلا الهادي الغفور، فإنه عَزَّوَجَلَّ قد أقدر عباده على أسبابها الموصلة إليها؛ فمن أخذ بهذه الأسباب وفقه الكريم الوهاب، ومن فَرَّط فيها وأقبل على موانعها والصوارف عنها فلا عجب أن يضل ويحيد ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

ولما رأيتُ في زماننا رأي العين التباين بين الخلق في ذلك؛ فمنهم موفق مُسَدَّد يبحث عن الحق والهدى لا يألو في ذلك جهدًا، فإذا ما تبين لزمه ولم يرض عنه بديلًا، ولو تكتب عليه من بالأرض قبيلًا، ومنهم المخذول عن الهدى الْمُعْرِض عن الحق ابتداءً رغم وضوح أعلامه، قد عمي عن رؤيته رغم أنه كشمس النهار، والأمر لله الواحد القهار، ومنهم من تنكب الصراط بعدما هُدي إليه، عرف ثم أنكر فانتكس بعدما سار عليه فرجع القهقرى -عياذًا بالله تعالى-.

فعزمتُ مستعينًا بالله على جمع مُصَنَّف في الهداية يكشف أسرارها ويجلي غوامضها في ضوء الكتاب والسنة وعقيدة السلف الأخيار؛ عله يكون دليلًا لطلابها، وسببًا من أسباب بلوغها للباحثين عنها.

وقد ضمنته خمسة مباحث:

١- **المبحث الأول:** في التعريف بالصراط المستقيم، وأهم معالمه، وبيان حاجة العبد إلى معرفة ذلك.

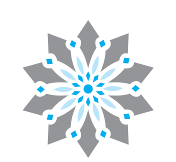
٢- **المبحث الثاني:** في بيان الهداية ومراتبها وسائر ما يتعلق بها.

٣- **المبحث الثالث:** في أسباب الهداية.

٤- **المبحث الرابع:** في موانع الهداية.

٥- **المبحث الخامس:** في القلب وأقسامه وسائر أحواله.

وإني لأطمع في رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله سببًا لي في التوفيق، والمن علي بالهداية، والثبات عليها حتى المات لي ولكل من عاونني في إخراج هذا البحث، إنه ولي ذلك والقادر عليه.





المبحث الأول

(في التعريف بالصراط المستقيم، وأهم معالمه، وبيان حاجة العبد إلى معرفة ذلك)

الفصل الأول: في التعريف بالصراط المستقيم وبيان حاجة العبد إلى ذلك.

الفصل الثاني: من أهم معالم الصراط المستقيم.

الفصل الثالث: في أحوال السائرين على الصراط المستقيم.

الفصل الرابع: لزوم استقامة العبد ولو كان وحده.





الفصل الأول
في التعريف بالصراط المستقيم وبيان حاجة العبد إلى ذلك

من المعلوم أن حاجة العبد إلى معرفة الصراط المستقيم وتوفيقه للسير عليها ولزومها فوق كل حاجة، وضرورته لذلك فوق كل ضرورة؛ لأن سعادته في الدنيا والآخرة ونجاته مبنية على ذلك، ومن أعظم ما يعين العبد على بلوغ هذا المقصود الأعظم العلم بحقيقة الصراط المستقيم ومعرفة أهم خصائصه.

ولذا قبل الكلام عن الهداية ومراتبها وكل ما يتصل بها، نبدأ بالكلام عن الصراط بتعريفه وبيان أهم سماته.

فالصراط: هو الطريق الجادة الواسعة، **والصراط المستقيم:** هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة العرب؛ فمن ذلك قال جرير بن عطية:

أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلى صِراطٍ ... إذا اعْوَجَّ المَوارِدُ مُسْتَقِيْمِ

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصر؛ قال: ثم تستعير العرب الصراط، فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه، ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير

الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيءٍ واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروي أنه -أي: الصراط- كتاب الله، وقيل: هو الإسلام؛ إذ هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وفي هذا المعنى جاء الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ضَرَبَ اللهُ مَثَلا صِراطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيِّ الصِّرَاطِ سُورٌ فِيهِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ أُرَاهُ، -قَالَ: سُتُورٌ مُرْخَاةٌ- وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَتَعَوَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ: الإِسْلامُ، وَالسُّتُورُ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»**[1]. وقال مجاهد: اهدنا الصراط المستقيم، قال: الحق، وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.

وعن أبي العالية قال: هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحباه، قال عصام: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح، وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة؛ فإن من اتبع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتدى باللذَين من بعده -أبي بكر وعمر- فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق، فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام، فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضًا، ولله الحمد.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي تركنا عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال الإمام

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٨٢، ١٨٣)، والترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٣)، وفي «تفسيره» (٢٥٣)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٩١).



أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي -أعني: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾- أن يكون معنيًّا به: وفقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووفقتَ له من أنعمتَ عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وُفِّقَ لما وُفِّقَ له مَن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفِّقَ للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

وقد وردت كلمة ﴿ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس:٢٥] و«**الصراط المستقيم**»: هو الإسلام، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج:٥٤] وهو الإسلام(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المؤمنون:٧٣]، أي: الإسلام(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا ﴾ [الأنعام:١٢٦]، وهذا الذي أنت عليه يا محمد طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيمًا لا عِوج فيه وهو الإسلام(٣).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام:١٦١]: «قل يا محمد لهم: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به وذلك الحنيفية المسلمة فوفقني له»(٤).

---

(١) «تفسير البغوي» (٢/ ٦٢٥).
(٢) «تفسير البغوي» (٢/ ٦٢٨).
(٣) «تفسير البغوي» (١/ ٢٧٢).
(٤) «تفسير الطبري» (٣/ ٣٩٢).

قال ابن عطية الأندلسي في تفسيره لهذه الآية: هذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ للنبي محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالإعلان بشريعته والانتباه مما سواها من الأضاليل، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة[(١)].

أما الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيقول في تفسيره لهذه الآية: يأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النبي محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة والأمر بكل حَسَن والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصًا إمام الحنفاء ووالد من يعيش من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الدين الحنيف[(٢)].

والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله؛ لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه... والمستقيم الذي لا عوج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيمًا وهو الجادة؛ لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضل فيه سالكه، ولا يتردد ولا يتحير، والمستقيم هنا مستعار للحق البين الذي لا تخلطه شبهة باطل، فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات... إلى أن قال -أي: صاحب «التحرير والتنوير»- والأظهر عندي أن المراد بالصراط المستقيم: المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل بأن يوفقهم إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال على مقادير استعداد النفوس وسعة مجال العقول النيرة والأفعال الصالحة بحيث لا يعتريهم زيغ وشبهات في دينهم. اهـ[(٣)].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٦٨، ٣٦٩).
(٢) «تفسير السعدي» (٢/ ٢٣٧).
(٣) «التحرير والتنوير» (ص١٩٠-١٩١) بتصرف يسير.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ قَدْ فُسِّرَ بِالْقُرْآنِ وَبِالْإِسْلَامِ وَطَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ».

فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَذَا وَبِغَيْرِهِ؛ فـ«**الْقُرْآنُ**» مُشْتَمِلٌ عَلَى مهمَّاتٍ وَأُمُورٍ دَقِيقَةٍ وَنَوَاهٍ وَأَخْبَارٍ وَقَصَصٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَهْدِ اللهُ الْعَبْدَ إِلَيْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِهَا ضَالٌّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ «**الْإِسْلَامُ**» وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ الْمَكَارِمِ وَالطَّاعَاتِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَكَذَلِكَ «**الْعِبَادَةُ**» وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ»[١].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا أن الصراط تتضمن أمورًا باطنة وأخرى ظاهرة: ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك، وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضًا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا. اهـ[٢].

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على الصراط المستقيم في الدنيا يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوبة على متن جهنم، وعلى قدر سيره عليها هنا يكون سيره عليها هناك، فالجزاء من جنس العمل ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

يقول الإمام ابن القيم: من هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٩).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٩٢).

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًّا، ومنهم من يحبو حبوًّا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠]، ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. اهـ[١].

والصراط المستقيم: هو الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسن رسله وجعله موصلًا للعباد إليه ولا طريق لهم إليه سواه، ومبناه على أمرين:

١- تجريد التوحيد إلى الله. ٢- تجريد المتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد»: ما هو الصراط المستقيم؟!

فنذكر فيه قولًا وجيزًا؛ فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلًا لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا؛ وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول، وهذا معنى قول بعض

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٦).

العارفين: «إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين؛ صدق محبته، وحسن معاملته» وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيءٍ فُسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وتُرضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته.

الأول: يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل له، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقُل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملًا، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال، كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بُني عليها، فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه وحقيقته الجامعة ما تقدم، والله أعلم(١).

✍ وقال أبو محمد المقدسي في «ذم الوسواس»: «وأمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باتباع صراطه المستقيم، ونهانا عن اتباع السبل؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وسبيل الله وصراطه المستقيم هو الذي كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، بدليل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٦).

ﭐلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يس]، ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٦٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢]، فمن اتبع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في قوله وفعله فهو على صراطه المستقيم، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه، ومن خالفه في قوله أو فعله، فهو مبتدع متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعد الله بالجنة والمغفرة والإحسان» اهـ[1].

يقول الإمام ابن القيم: «وهذا الصراط المستقيم الذي وصانا باتباعه هو الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة، وإن قاله من قاله، لكن الجور قد يكون جورًا عظيمًا عن الصراط، وقد يكون يسيرًا، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، وهذا كالطريق الحسي؛ فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جورًا فاحشًا، وقد يجور دون ذلك، فالميزان الذي يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عليه، والجائر عنه إما مفرِّط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل؛ فمنهم المستحق للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجرًا واحدًا، بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم في طاعة الله تعالى ورسوله، أو تفريطهم» اهـ[2].

الصراط يتضمن خمسة أمور:

لا يكون الطريق صراطًا حتى يتضمن خمسة أمور بيَّنها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يكون الطريقُ صراطًا حتى تتضمَّن خمسةَ أمور: الاستقامةَ، والإيصالَ إلى المقصود، والقُرْبَ، وسعتَه للمارِّين عليه، وتعيُّنَه طريقًا للمقصود.

(١) «إغاثة اللهفان» (ص١٢٥، ١٢٦).
(٢) «إغاثة اللهفان» (ص١٢٣).



ولا يخفى تضمُّنَ الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة؛ فوصفُه بالاستقامة يتضمَّن قربَه؛ لأن الخطَّ المستقيم هو أقربُ خطٍّ فاصل بين نقطتين، وكلما تَعَوَّجَ طالَ وبَعُدَ، واستقامتُه تتضمَّن إيصالَه إلى المقصود، ونصبُه لجميع مَن يمُرُّ عليه يستلزمُ سعتَه، وإضافتُه إلى المنعَم عليهم ووصفُه بمخالفةِ صراط أهل الغضب والضلال يستلزمُ تعيُّنَه طريقًا» اهـ[(١)].

خلاصة القول أن الصراط المستقيم كما يقول العلامة ابن باز: «كلمة واحدة تجمعه، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده، ويجعله الموصل إليه لمن استقام عليه، وهو فعل الأوامر وترك النواهي، هذا صراط الله؛ من استقام عليه وصل إلى النجاة، ومن حاد عنه صار إلى الهلاك»[(٢)].



(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٦- ١٧).
(٢) «الفوائد العلمية من الدروس البازية» (٢/ ٣٧).

الفصل الثاني

من أهم معالم الصراط المستقيم

(أ) وسط بين الغلو والتَّفريط:

من أهم معالم الصراط المستقيم أنه وسط بين الغلو والتفريط؛ فهو يقع بين طرفين مذمومين:

أحدهما: طرف أهل الغلو الذين تجاوزوا الحد، فابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، فعبدوا الله بحسب أهوائهم بدلًا من أن يعبدوه بما شُرع على لسان رسوله، ولذا ذمهم الله عَزَّوَجَلَّ غاية الذم، فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ... ﴾ الآية [الشورى:٢١] فأشبه هؤلاء النصارى الضالين.

والطرف الثاني: فرَّط وقصَّر في أداء ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، فلم يُعظم حرمات الله وشعائره، ولم يقف عند حدوده وشرائعه، فهم مضيعون للمأمور مقترفون للمحظور، وهؤلاء أَشْبَهُوا اليهود الذين استحلوا محارم الله بأدنى الحيل، فصراط الله المستقيم الذي تعبدَنا الله عَزَّوَجَلَّ بلزومه والثبات عليه وسط بين هذين الطرفين، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ... ﴾ الآية [الأنعام:١٥٣].

فعن ابن مسعود قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَوْمًا خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الآية [الأنعام:١٥٣][1].

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٩٣٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة» لابن أبي عاصم (ص٥).

ولذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة المباركة أنها أمة وسط؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ الآية [البقرة:١٤٣]، أي: عدولًا خيارًا تلزم الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعيدًا عن سبيل المغضوب عليهم وطريق الضالين.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾: كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وبما جاءكم به من عند الله؛ فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم مِن أهل المِلل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمةً وسطًا.

وقد بيَّنا أن الأمة هي القرن من الناس والصنف منهم وغيرهم.

وأما الوسط، فإنه في كلام العرب «الخيار» يقال منه: «فلان وسط الحسب في قومه»، أي: متوسط الحسب إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، و«هو وسط في قومه وواسط»، كما يقال: «شاة يابسة اللبن ويبسة اللبن»، وكما قال -جل ثناؤه-: ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ [طه:٧٧].

وقال زهير بن أبي سلمى في «الوسَط»:

هُمُ وَسَطٌ تَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ   إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

قال أبو جعفر: وأنا أرى أن «الوسط» في هذا الموضع، هو «الوسط» الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل: «وسط الدار» محرك الوسط مثقّله، غير جائز في «سينه» التخفيف.

وأرى أن الله -تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم «وسط»، لتوسطهم في الدين؛ فلا هُم أهل غلو فيه -غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا

فيه-، ولا هم أهل تقصير فيه -تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به- ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها.

وأما التأويل، فإنه جاء بأن «الوسط» العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم. اهـ[(١)].

الانحراف عن الصراط المستقيم يكون بالغلو أو التفريط، والخروج عن السبيل القويم يكون إما بالغلو ممن تسلط عليهم الشيطان فأغواهم أو بالتقصير والتفريط.

وها هو الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوضح لنا كيد الشيطان وكيف ينحرف بالإنسان عن الجادة والصراط إما بالغلو ومجاوزة الحد، وإما بالتقصير والتفريط؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن كيد الشيطان العجيب، أنه يشام النفس[(٢)] حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها؛ قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؛ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه فهون عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون به، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول، ويتجاوز الثاني، كما قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٨، ٩).

(٢) **يشام**: أي: يقترب منها ويلتمس ما فيها، ويحس، ويشعر، ويعرف أصل المسألة في النفس.

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

فقوم **قصر** بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس.

وقوم **قصر** بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم **تجاوز** بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كَلًّا على الناس مستشرفين إلى ما بأيديهم.

وقوم **قصر** بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم **تجاوز** بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

وكذلك **قصر** بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، **وتجاوز** بآخرين حتى عبدوهم.

وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات؛ كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، **وتجاوز** بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، **وتجاوز** بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك **قصر** بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، **وتجاوز** بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، **وتجاوز** بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم، **وتجاوز** بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى.

وكذلك **قصر** بقوم حتى منعهم من قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، **وتجاوز** بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه، والحرام ما حرموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة الصريحة.

وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم ولكنهم يعملونها بدون مشيئة الله تعالى وقدرته، **وتجاوز** بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل البتة.

وقصر بقوم حتى قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ولا بائنًا عنهم ولا هو فوقهم ولا تحتهم ولا خلفهم ولا أمامهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، **وتجاوز** بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته كالهواء الذي هو داخل في كل مكان.

وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يُشَفِّع أحدًا في أحدٍ البتة، ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحدٍ، **وتجاوز** بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

وقصر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل فضلًا عن أبي بكر وعمر، **وتجاوز** بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

وقصر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته، وعطلوه منها، **وتجاوز** بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه بهم.

وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلوهم واستحلوا حرمتهم، **وتجاوز** بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية.

وكذلك **قصر** باليهود في المسيح حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأهما الله منه، **وتجاوز** بالنصارى حتى جعلوه إلهًا يعبد مع الله.

وقصر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات وهم النصارى وأشباههم، **وتجاوز** بقوم حتى أفضى الوسواس إلى الآصار والأغلال وهم أشباه اليهود.

وقصر بقوم حتى تزينوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، **وتجاوز** بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم وسموا أنفسهم الملامتية.

وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلًا أو فضولًا. **وتجاوز** بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا باب واسع جدًّا، لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة». اهـ[1].

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (ص٢٢٢- ٢٢٦) بتصرف.

إذًا الانحراف عن الوسطية من أعظم مداخل الشيطان، وهو شأن أغلب الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: الِانْحِرَافُ عَنْ الْوَسَطِ كَثِيرٌ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ فِي أَغْلَبِ النَّاسِ، مِثْلَ تَقَابُلِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ يَتَّخِذُهَا بَعْضُهُمْ دِينًا وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا أَوْ مَأْمُورًا بِهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَعْتَقِدُهَا حَرَامًا مَكْرُوهًا أَوْ مُحَرَّمًا أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: «**سَمَاعُ الْغِنَاءِ**» فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ تَتَّخِذُهُ دِينًا وَإِنْ لَمْ تَقُلْ بِأَلْسِنَتِهَا أَوْ تَعْتَقِدْ بِقُلُوبِهَا أَنَّهُ قُرْبَةٌ فَإِنَّ دِينَهُمْ حَالٌ لَا اعْتِقَادٌ؛ فَحَالُهُمْ وَعَمَلُهُمْ هُوَ اسْتِحْسَانُهَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَحَبَّتُهُمْ لَهَا دِيَانَةً وَتَقَرُّبًا إلَى اللهِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَيَقُوله بِلِسَانِهِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَعْتَقِدُ وَيَقُولُ: لَيْسَ قُرْبَةً لَكِنَّ حَالَهُمْ هُوَ كَوْنُهُ قُرْبَةً وَنَافِعًا فِي الدِّينِ وَمُصْلِحًا لِلْقُلُوبِ، وَيَغْلُو فِيهِ مَنْ يَغْلُو حَتَّى يَجْعَلَ التَّارِكِينَ لَهُ كُلَّهُمْ خَارِجِينَ عَنْ وِلَايَةِ اللهِ وَثَمَرَاتِهَا مِنْ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ.

وَبِإِزَائِهِمْ مَنْ يُنْكِرُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْغِنَاءِ وَيُحَرِّمُهُ وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ غِنَاءِ الصَّغِيرِ وَالنِّسَاءِ فِي الْأَفْرَاحِ وَغِنَاءِ غَيْرِهِنَّ وَغِنَائِهِنَّ فِي غَيْرِ الْأَفْرَاحِ، وَيَغْلُو مَنْ يَغْلُو فِي فَاعِلِيهِ حَتَّى يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ فُسَّاقًا أَوْ كُفَّارًا.

وَهَذَانِ الطَّرَفَانِ مِنْ اتِّخَاذِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ دِينًا أَوْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرَّمْ - دِينُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّصَارَى: الَّذِي عَابَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ

حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ: «**إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(١)، وَقَالَ فِي حَقِّ النَّصَارَى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩]. وَمِثَالُ ذَلِكَ: أَنْ يَحْصُلَ مِنْ بَعْضِهِمْ «**تَقْصِيرٌ فِي الْمَأْمُورِ**» أَوْ «**اعْتِدَاءٌ فِي الْمَنْهِيِّ**» إِمَّا مِنْ جِنْسِ الشُّبُهَاتِ وَإِمَّا مِنْ جِنْسِ الشَّهَوَاتِ، فَيُقَابِلُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ بِالِاعْتِدَاءِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ بِالتَّقْصِيرِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَالتَّقْصِيرُ وَالِاعْتِدَاءُ إِمَّا فِي الْمَأْمُورِ بِهِ وَالْمَنْهِيِّ عَنْهُ شَرْعًا، وَإِمَّا فِي نَفْسِ أَمْرِ النَّاسِ وَنَهْيِهِمْ هُوَ الَّذِي اسْتَحَقَّ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ الْعُقُوبَةَ حَيْثُ قَالَ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢]، فَجَعَلَ ذَلِكَ بِالْمَعْصِيَةِ وَالِاعْتِدَاءِ، وَالْمَعْصِيَةُ: مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ وَهُوَ التَّقْصِيرُ، وَالِاعْتِدَاءُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ.

وَكَذَلِكَ يَضْمَنُ كُلُّ «مُؤْتَمَنٍ عَلَى مَالٍ» إِذَا قَصَّرَ وَفَرَّطَ فِي مَا أُمِرَ بِهِ، وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ إِذَا اعْتَدَى بِخِيَانَةٍ أَوْ غَيْرِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، فَالْإِثْمُ هُوَ الْمَعْصِيَةُ -وَاللهُ أَعْلَمُ-. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا**»(٢) فَالْمَعْصِيَةُ تَضْيِيعُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ، وَهُوَ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالِاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ حُدُودِ الْمُبَاحَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ

---

(١) رواه مسلم (٧٣٨٦).

(٢) رواه الدارقطني (٤٢)، وقال الألباني في «تخريج شرح العقيدة الطحاوية» (٣٣٨): «حسن لغيره».

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فَالمَعْصِيَةُ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ مَا أَحَلَّهُ إِلَى مَا حَرَّمَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ-: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران:١٤٧]، فَالذُّنُوبُ: المَعْصِيَةُ، وَالإِسْرَافُ: الاعْتِدَاءُ وَمُجَاوَزَةُ الحَدِّ.

وَاعْلَمْ أَنَّ «**مُجَاوَزَةَ الحَدِّ**» هِيَ نَوْعٌ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّهْيِ؛ لِأَنَّ اعْتِدَاءَ الحَدِّ مُحَرَّمٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَيَدْخُلُ فِي قِسْمِ المَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لَكِنَّ المَنْهِيَّ عَنْهُ قِسْمَانِ:

مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا كَالْكُفْرِ، فَهَذَا فِعْلُهُ إِثْمٌ وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَقِسْمٌ أُبِيحَ مِنْهُ أَنْوَاعٌ وَمَقَادِيرُ وَحَرَّمَ الزِّيَادَةَ عَلَى تِلْكَ الأَنْوَاعِ وَالمَقَادِيرِ، فَهَذَا فِعْلُهُ عُدْوَانٌ.

وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ العُدْوَانُ فِي المَأْمُورِ بِهِ كَمَا يَحْصُلُ فِي المُبَاحِ؛ فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى المَأْمُورِ بِهِ قَدْ يَكُونُ عُدْوَانًا مُحَرَّمًا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا مُطْلَقًا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا إِلَى غَايَةٍ، فَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عُدْوَانٌ.

وَلِهَذَا التَّقْسِيمِ قِيلَ فِي «**الشَّرِيعَةِ**»: هِيَ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالحَلَالُ وَالحَرَامُ، وَالفَرَائِضُ، وَالحُدُودُ، وَالسُّنَنُ، وَالأَحْكَامُ، «**فَالْفَرَائِضُ**»: هِيَ المَقَادِيرُ فِي المَأْمُورِ بِهِ.

وَ«**الحُدُودُ**»: النِّهَايَاتُ لِمَا يَجُوزُ مِنَ المُبَاحِ المَأْمُورِ بِهِ وَغَيْرِ المَأْمُورِ بِهِ». اهـ[(١)].

يقول العلامة عطية محمد سالم: والاستقامة كما قيل: وسط بين طرفي الإفراط والتفريط، كما قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٨-٣٦٢).

﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، والاستقامة وسط بين الجبن والتهور ممثلة في الشجاعة، ووسط بين الشح والتبذير ممثلة في الكرم، وهكذا كان التوجيه الإلهي في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء]. وبعدها آية واحدة قال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩].

فالاستقامة: الوسط والاعتدال والفضيلة بين الطرفين، وهو مضمون ما بعدها في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧] أي: أهل إنعامك وفضلك، وهم المنوه عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء]، فهؤلاء هم رفقة هذا الصراط المستقيم.

ثم بيَّن طرفي الانحراف عن منهج الاستقامة في قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]، ومعلوم أن المغضوب عليهم المذكورين في هذه الآية هم اليهود، وكانوا كذلك لأنهم علموا الحق وجاءتهم رسلهم بالبينات وأوضحوا لهم الطريق، ولكنهم تولوا وأعرضوا استكبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، وكما قال تعالى عنهم في حق نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦].

والضالون هم النصارى؛ لأنهم عبدوا الله على جهالة، ولهذا قال العلماء: كل من كتم الحق ولم يعمل به فيه شبه من اليهود، وكل من عمل على جهالة فيه شبه من

النصارى، وكانت الاستقامة هي العمل على هداية وبصيرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن هنا كرَّم الله تعالى هذه الأمة بأن جعلها وسطًا بين تلك الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، الوسط هم العدول الأخيار، وللإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الرسالة الواسطية»، بيَّن فيها فضل وسط هذه الأمة بين الأمم في العقائد والعبادات وغير ذلك، وقد ظهر هذا الفضل وشرف هذا الاعتدال في قضية عظيمة بين الأمم الثلاث؛ اليهود والنصارى والمسلمين، تلك هي قضية عيسى وأمه مريم -عليهما مِنَ الله الصلاة والتسليم- فها هم اليهود أول من جاءتهم به تحمله ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم]، فلم تحرِ جوابًا، وأشارت إليه، وكانت براءتها من منبع تهمتها ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠] إلى آخر جوابه المعجز، بينما النصارى قالوا فيه: ابن الله، أو هو الله، وألَّهوه وأمه؛ فقالوا: ثالث ثلاثة، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٢]، وقوله عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، وكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]، وجاءت هذه الأمة بالقول الحق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧١][1].

(١) «آيات الهداية والاستقامة» (١/ ١٦-١٧).

(ب) من معالم الصراط المستقيم أنها مخالفة لسبل أصحاب الجحيم:

ومن أهم سمات الصراط المستقيم أنها مباينة لسبل أصحاب الجحيم؛ فالصراط المستقيم هي سبيل المؤمنين الموصلة إلى مرضاة رب العالمين، والتي شرعها على ألسنة الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- أما سبل الضلالة والتي تنكب أهلها الصراط المستقيم، فقد سماها القرآن سبيل المجرمين.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله -سبحانه- يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك»(١).

وقد بعث الله عبده ورسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحكمة التي هي سنته وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين. اهـ(٢).

فالصراط المستقيم تخالف تمامًا ما عليه أصحاب الجحيم، ولذا حذر الله عَزَّوَجَلَّ من اتباع سبيل المجرمين والمفسدين، ومِن التشبه بهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون: ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٨٩].

قال العلامة السعدي: ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال المنحرفين عن الصراط المستقيم المتبعين لطريق الجحيم. اهـ(٣).

(١) «الفوائد» (ص١٤٥).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٤٢٠).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٣٧٢).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

ولذا بيّن الله عَزَّوَجَلَّ لنا سبيل المؤمنين مفصلًا وسبيل المجرمين مفصلًا؛ لنتبع الأولى ونجتنب الثانية ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

يقول العلامة السعدي: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد؛ ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل. اهـ[(١)].

يقول الإمام ابن القيم: والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة، وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلّا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبيّنهما غاية البيان حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٣٦، ٢٣٧).



فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصّلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه؛ فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبةً ومحبةً فيما انتقلوا إليه ونفرةً وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل اهـ[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ثم إنه -سبحانه- بعثه بدين الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم مرارًا في صلاتهم، ووصفه بأنه صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قَالَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: هَذَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَجِئْتُ بِغَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ، فَلَمَّا دُفِعْتُ إِلَيْهِ أَخَذَ بِيَدِي، وَقَدْ كَانَ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ يَدَهُ فِي يَدِي**»، قَالَ: فَقَامَ فَلَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ

(١) «الفوائد» (ص١٤٢، ١٤٣).

وَصَبِيٌّ مَعَهَا، فَقَالَا: إِنَّ لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَامَ مَعَهُمَا حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي حَتَّى أَتَى بِي دَارَهُ، فَأَلْقَتْ لَهُ الْوَلِيدَةُ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا يُفِرُّكَ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللهِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا تَفِرُّ أَنْ تَقُولَ: اللهُ أَكْبَرُ، وَتَعْلَمُ أَنَّ شَيْئًا أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟**». قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: «**فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ**». قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي حنيف مسلم، قَالَ: فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ تَبَسَّطَ فَرَحًا... وذكر حديثًا طويلًا(١).

[رواه الترمذي، وقال: «هذا حديث حسن غريب»].

وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]، وهم المنافقون الذين تولوا اليهود، باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه.

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢]، وذكر في البقرة قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وفيها أيضًا: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:٩٠]، وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٣-٧٧]. وهذا

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٣)، وصححه الألباني في «تخريج الطحاوية» (٨١١).

خطاب للنصارى كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ الآية [النساء:١٧١]. واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه، فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة، ليس هذا موضعها.

وجماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم؛ فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولًا أو عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

ولهذا كان السلف -كسفيان بن عيينة وغيره- يقولون: إن مَن فسد مِن علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى، وليس هذا أيضًا موضع شرح ذلك.

ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله مما سبق في علمه؛ حيث قال فيما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حذو القذة بالقذة حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه**»، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟!**»[(١)].

وروى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي مَأْخَذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «**وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟!**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) رواه البخاري (٧٣١٩).

فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى؛ وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم؛ وهم الأعاجم.

وقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمة؛ بل قد تواتر عنه أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة**»، وأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته.

فعلم بخبره الصدق أنه لا بد أن يكون في أمته قوم مستمسكين بهديه، الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود، أو إلى شعبة من شعب دين النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف، بل وقد لا يفسق أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون سيئة، وقد يكون خطأً، وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله -سبحانه- بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا. اهـ[(١)].

أقسام الناس في التمييز بين سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين:

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها، وكفّر من خالفها، واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفّر من خالفها.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٠).

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الأُولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أخص، ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئًا مما خالف سبيل المؤمنين صرف عنه سمعه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه، ولم تدعه إليها نفسه. بخلاف الفرقة الأولى؛ فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: أن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عَزَّوَجَلَّ من ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣]، وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها وحذّر منها ودفعها عن نفسه، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهةً ولا شكًّا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه، فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به فيقوى إيمانه به. كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبةً لضدها ورغبةً فيه وطلبًا له وحرصًا عليه.

فلما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى.

فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها صرف ذلك الشوق والمحبة والإرادة إلى النوع العالي الدائم فكان طلبه له أشد، وحرصه عليه أتم، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم؛ ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكبًا على النجائب! فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره، فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له في بعض الأشياء، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا. وكذلك من كان عارفًا بطريق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملًا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. اهـ[(١)].

---

(١) «الفوائد» (ص١٤٣-١٤٥).

صحة الفهم وحسن القصد ينجيان من سبيل المغضوب عليهم والضالين:

ومن أعظم ما ينجي العبد من سبيل المغضوب عليهم والضالين أن يمن الله عليه بصحة الفهم ويرزقه بحسن القصد؛ فصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى.

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان قوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا؛ فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته

وصدقه، وكما توصل سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما**»، إلى معرفة عين الأم، وكما توصل أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته: «لتخرجن الكتاب أو لأجردنك» إلى استخراج الكتاب منها.

وكما توصل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى دلهم على كنز جبي لما ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله: «المال كثير والعهد أقرب من ذلك»، وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم، فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم كما ضربهم، وأخبر أن هذا حكم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

(جـ) ومن معالم الصراط المستقيم أنها واحدة:

ومن معالم الصراط المستقيم -وهي الطريق التي نصبها الله تعالى موصلة إليه على ألسنة رسله- أنها واحدة؛ إذ الحق واحد بخلاف سُبُل الضلال؛ فإنها شتى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾ الآية [الأنعام:١٥٣].

يقول العلماء في هذه الآية لفتة بلاغية وهي توحيد لفظ الصراط المضاف إلى الله وجمع لفظ السُّبل الأخرى؛ لأن الصراط المضاف إلى الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد، وأما السُّبل الأخرى المنحرفة عنه فمتعددة وملتوية. اهـ(٢).

يقول ابن القيم: وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرَّفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٠).
(٢) «آيات الهداية والاستقامة» (٥/ ٢٢٨).

الغضب والضلال، فإنه سبحانه يجمعها ويفردها؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له.

وقال ابن مسعود: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، وَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣][(١)]، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحدٌ إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله؛ قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، قال الحسن: معناه: صراط إلي مستقيم، وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة ﴿عَلَىَّ﴾ مقام «إلي».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إلي، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل: ﴿عَلَىَّ﴾ فيه للوجوب، أي: علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ

(١) سبق تخريجه.

﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد وهو المستقيم المعتدل يرجع إلى الله، ويوصل إليه؛ قال طفيل الغنوي:

مَضَوْا سَلَفًا قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَيْهِمُ وَصَرْفُ الْمَنَايَا بِالرِّجَالِ تُشَقْلَبُ

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فَهُنَّ الْمَنَايَا أَيُّ وَادٍ سَلَكْتُهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَا

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلي» التي هي للانتهاء، لا أداة ﴿عَلَيَّ﴾ التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول، قال: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية]، وَقَالَ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [لقمان:٢٣]، وَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وَقَالَ لَمَّا أَرَادَ الْوُجُوبَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦] ونظائر ذلك.

قيل: في أداة ﴿عَلَيَّ﴾ سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة:٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] والله عَزَّوَجَلَّ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة ﴿عَلَيَّ﴾ على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلي» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ﴿عَلَيَّ﴾ في ذلك أيضًا؟ وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة ﴿عَلَيَّ﴾ ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال



والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥].

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلًا، هاويةً بسالكها في أسفل سافلين(١).

ولما كان الصراط المستقيم واحدًا بخلاف سبل الضلالة وحد الله لفظ النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٨-٤٠).

وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل:٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه. اهـ[١].

يقول العلامة ابن باز معلقًا على كلام الإمام ابن القيم: بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله.

وبهذا يعلم أن من يقول: أن الأديان كلها موصلة، أو أن اليهودية موصلة، أو النصرانية موصلة، إن هذا من أبعد الناس عن الهدى، وإنه من أضل الناس عن الحق، وإنه كافر بالله؛ فلا طريق للناس أبدًا إلى الله وقرابته، وإلى الجنة والنجاة من النار إلا طريق محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومن زعم أن هناك طرقًا أخرى يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو بوذية أو قاديانية أو غير ذلك أي طرق زعموها فهي طرق باطلة واعتقادها ضلال وكفر بالله ورِدة عن دين الإسلام، ومن زعم أنه يسع أحدًا من هذه الأمة الخروج من شريعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، وهكذا الأنبياء الآخرون، فهذا ضال مضل وكافر بما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالطريق الوحيد هو طريق الله الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو صراط الله المستقيم: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] نسأل الله العافية. اهـ[٢].

يقول العلامة عطية سالم: وهنا وقفة مع إيراد السبيل بصيغة الجمع والتعدد وفي مواطن أخرى يأتي السبيل مفردًا مضافًا إلى الله، ومتعددًا مضافًا إلى غيره سبحانه، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

(١) «تفسير ابن كثير» (ص٣٢٢، ٣٢٣).
(٢) «الفوائد البازية» (٢/ ١٥٥، ١٥٦).

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وما جاء عنه ﷺ: أَنَّهُ خَطَّ يَوْمًا خَطًّا، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا، فَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ؛ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[(١)].

ففي هذا كله إفراد السبيل والصراط المضاف إلى الله بينما ما أضيف لغير الله جاء مجموعًا متعددًا.

وقال العلماء في ذلك: لأن سبيل الله وصراط الله هو الحق، والحق واحد، وما عداه هي طرق الباطل والضلال والأهواء.

وهنا جاء السبيل مجموعًا: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩]، والواقع أنه لم يتعارض مع ما تقدم؛ لأن الهداية هنا مرتبطة بالمجاهدة، وميادين الجهاد في ذات الله متعددة؛ جهاد بالسنان، وجهاد باللسان، وجهاد للأعداء، وجهاد للنفس، وكل نوع من مسميات الجهاد هنا يختلف عن الآخر، وسبيله يغاير سبيل ما سواه، فكان يتطلب لكل جهاد سبيلًا يوصل الغاية المقصودة منه، فاقتضى تعدد السبل في قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ مع ملاحظة تفرد السبيل في كل ميدان؛ فميدان العلم للمجاهد في طلب العلم سبيل واحد، وهو التزام كتاب الله وسنة رسوله، وما يقتضي ذلك من علوم مساعدة، وميدان الجهاد في أمر دنيوي سبيل واحد، وهو تحري الحلال والكسب المشروع، بل والجهاد في سبيل نصرة الدين بقتال الأعداء سبيل واحد، وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا حمية ولا شجاعة، وهكذا تعدد السبل من جهة تعدد ميادين الجهاد وتنوعه وهي في كل نوع سبيل واحد. اهـ[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله» الشيخ/ عطية محمد سالم (٢/ ١٤، ١٥) بتصرف يسير.



تنوع الطاعات لا ينافي كون الطريق إلى الله واحدة:

لما كانت استعدادات الخلق وقدراتهم متفاوتة ومتنوعة جاءت الطاعات والشرائع التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ليتقربوا بها إليه متعددة ومتنوعة أيضًا؛ رحمة منه بعباده ليتقرب كل مكلف بما يلائم استعداده وقوته وقبوله؛ فمن الناس من يكون سيد عمله العلم والتعلم، ومنهم من يكون سيد عمله الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من يكون سيد عمله القيام والصيام والذكر وهكذا، وهذا التنوع للطاعات لا ينافي كون الطريق إلى الله واحدة؛ لأنها لا تخرج عما شرع الله عَزَّوَجَلَّ لعباده فكلها مراضيه ومحابه، وإنما تنوعت بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال.

يقول ابن القيم: والمقصود أن الطريق إلى الله تعالى واحد، فإنه الحق المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل؛ فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء: أَن الطريق إلى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمة منه وفضلًا، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق، وكشف ذلك وإيضاحه أن الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع؛ فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأَزمان والأَماكن والأَشخاص والأَحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله سبحانه لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعًا واحدًا مع اختلاف الأَذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئٍ إلى ربه طريقًا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد، بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «**الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلات دينهم واحد**»[(١)]، فأولاد العلات أن يكون الأب واحدًا والأُمهات متعددة، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها كلها إلى أب واحد.

وإذا عُلم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويُفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وقد حُكِيَ عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص، طالب للقرآن أنه رؤى بعد موته وأخبره أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأْس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أَو قصر رأَى أنه قد غبن وخسر، ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أَو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أَو مستعد لها أَظلم عليه وقته وضاق صدره.

---

(١) رواه أحمد (٩٩٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٥٢). ورواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٦٢٧٩)، بلفظ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ».

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي؛ كقضاءِ الحاجات، وتفريج الكربات، وإِغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقًا إلى ربه، ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أَوقاته وهي أعظم أوراده، ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءَت حاله.

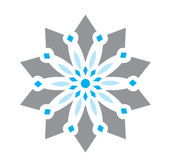
ومنهم من يكون طريقه الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه، ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأَوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم من جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أَين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب من كل فريق بسهم، فأَين كانت العبودية وجدْته هناك: إِن كان علم وجدته مع أَهله، أَو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أَو صلاة وجدته في القانتين، أَو ذكر وجدته في الذاكرين، أَو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أَو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أَنَّى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت جالبة ما جلبت مقتضية ما اقتضت جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبًا له فيها عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمت إليه المبيع منتظرًا منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].



فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة.

ومعنى النفوذ إليه: أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه، فيسلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقرب إليه، فإذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأَخذ بقلبه إليه وتولاه في جميع أموره؛ في معاشه ودينه وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده، فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أَحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من دون الناس حبيبًا وربًّا، ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا، فلو كشف الغطاءَ عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه حبًّا له وشوقًا إليه ويقع شكرًا له، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم[1].



(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/ ١٧٨-١٨٠).



الفصل الثالث

في أحوال السائرين على الصراط المستقيم

الناس في سفرهم إلى الدار الآخرة قسمان:

قسم سائر إلى دار الشقاء، وهؤلاء هم الكفار الذين قطعوا مراحل السير بمساخط الرِّبِ ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطاء دعوته، وهؤلاء هم أهل الخلود في النار عياذاً بالله.

أما القسم الثاني: فهم السائرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهؤلاء ليسوا على درجة واحدة، بل هم درجات ثلاث:

الأول: ظالم لنفسه قارف المحرمات أو بعضها وفرط في أداء الواجبات أو بعضها، وإن كان معه أصل الإيمان، وهذا تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، ولكنه لا يخلد في النار بما معه من أصل الإيمان.

والثاني: مقتصد قد أتى بالواجبات، واجتنب المحرمات، فإن ذلت قدمه، وقارف معصية سارع بالتوبة والأوبة فهدمت توبته ذنبه.

وثالث: سابق بالخيرات قد أتى الواجبات والمستحبات واجتنب المحرمات والمكروهات.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا حالهم وأقسامهم: القسم الثاني قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضَّار.

والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشدَّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات همه في تحصيل الأَرباح وشد أَحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأَرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أَن أمامه بلدة يكسب الدرهم فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أَمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن ربه يرى خسرانًا بينًا أن يمر عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها ساعية فيها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة؛ فمرة يأْخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونًا

ووعدًا بالتوبة، فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراءِ ذلك لا يعدم عباده منه فضله وعدله.

وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم، فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشتغلًا بها قائمًا بأعيانها مؤديًا واجب الرب تعالى فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأُخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول، فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاءَ الليل فكذلك إلى حين النوم يأْخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب يقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون، وهؤلاء الأَصناف الثلاثة هم أَهل اليمين، وهم المقتصدون والأَبرار والمقربون، وأَما الظالم لنفسه فليس من أَصحاب اليمين عند الإِطلاق وإِن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه[١].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/ ١٨٦، ١٨٧).

لا منافاة بين كون العبد ظالمًا لنفسه مع انتسابه للأمة المصطفاة:

فإن قيل: كيف يكون العبد ظالمًا لنفسه وهو مع ذلك من أهل الصراط المستقيم والأمة المصطفاة؟! قيل: لا منافاة بين كونه مصطفى محبوبًا لله وكونه ظالمًا لنفسه؛ فهو من المصطفين لكونه ممن ورثوا الكتاب علمًا وعملًا وبما معه من أصل الإيمان، وظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أمر به وتعديه بعض ما نهي عنه.

يقول ابن القيم: فجوابه أن كون العبد المصطفى لله ووليًّا لله ومحبوبًا لله ونحو ذلك من الأسماء الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلم العبد نفسه أحيانًا بالذنوب والمعاصي، بل أبلغ من ذلك أن صدِّيقيته لا تنافي ظلمه لنفسه، ولهذا قال صديق الأمة وخيارها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران].

فأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ

(١) رواه البخاري (١/ ٢١١، ٨/ ٨٩، ٩/ ١٤٤)، ومسلم (٢٠٧٨).

﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر]، فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالًا سيئة يكفرها، ولا ريب أنها ظلم للنفس، وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]، وقال آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وقال يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل].

وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصديقية والولاية، ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين، بل يجتمع فيه الأمران؛ يكون وليًّا لله صديقًا متقيًا وهو مسيء ظالم لنفسه، علم أن ظلمه لنفسه لا يخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه؛ إذ هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علمًا وعملًا، ظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أمر به وتعديه بعض ما نهي عنه، كما يكون الرجل وليًّا لله محبوبًا له من جهة ومبغوضًا له من جهة أخرى، وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن لعنه، وقال: «**إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[(١)].

ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزيء والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الإيمان، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر.

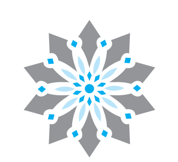
---

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).



وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفر.

ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمد الله. اهـ[١].



(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

الفصل الرابع

لزوم استقامة العبد ولو كان وحده

إن العبد مطالبٌ بالتزام الصراط المستقيم وقطع مراحل السير فيه إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولو لم يجد له رفيقًا يعينه ويستأنس به؛ لأن في ذلك نجاته، ولما كانت النفس البشرية مجبولة على وحشة التفرد وعلى الاستئناس بالغير لزمه أن يصبرها بعاقبة التخلف عن السير والإخلاد إلى الأرض بزعم انعدام الصحبة والرفقة، فيسلي نفسه بذكر استصحاب من ساروا على هذا الطريق قبلها من الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]، فإن ذلك أعون لها في المُضِيِّ حتى الوصول، وعلى السالك أن لا يغتر بكثرة الهالكين في طرق الضلالة.

يقول ابن القيم: ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلون قدرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين»، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف



عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك، وقد ضربت لذلك مثلين فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس فألقى عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ**»[(١)]، أي: أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية، أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٩٩، ٢٠٠)، وأبو داود (١٤٢٥)، والنسائي (٣/ ٤٨)، والترمذي (٤٦٤)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١١٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق علي في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك... اهـ[(١)].

فالحق لا يعرف بالكثرة، بل موافقة الكتاب والسنة ولو قلَّ أهله، والباطل ما خالف كتاب الله وسنة رسوله ولو كثر أتباعه، بل الغالب في الخلق أن الكثرة على خلاف الحق والسبيل، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

يقول العلامة السعدي: يقول تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم؛ فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة فحريٌّ أن يحذر الله منه عباده ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا وإن كان خطابًا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن أمته تبع له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه والله تعالى أصدق قيلًا، وأصدق حديثًا، وهو أعلم من يضل عن سبيله، وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم أيها المؤمنون أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم وأرحم بكم من أنفسك، ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

---

(١) «مدارج السالكين» (ص٢٢، ٢٣).

ويقول العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، يبين أنه أرسل الرسل ليطاعوا لكن منهم من أُطيع، ومنهم من عُصي، بل أكثرهم عُصي، ولم يطعهم إلا قليلًا، وبعض الرسل قتله قومه وما قبلوا منه شيئًا فيأتي وحده يوم القيامة ما معه أحد، وهذا يبين لنا أن أكثر الخلق يطيع الهوى ويعصي المولى، فينبغي لك أن تحذر وأن لا تغتر بالكثرة، ولكن ينظر إلى ما ادعى بدليله؛ فإن قام الدليل على صحته أخذه ولو لم يكن معه إلا القليل، وإذا ظهر له باطله تركه، وإن كان معه الكثير؛ قال بعض السلف: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين. اهـ[١].

العقبات التي يعرقل الشيطان بها سير السالكين لينحرف بهم عن الصراط المستقيم

وإذا كان العبد مطالبًا بلزوم الصراط المستقيم والسير عليها ليصل إلى مرضاة ربه والفوز بجنته، فإنه مما ينبغي التنبيه عليه أن هناك عقبات في سيره هذا تحاول من خلالها شياطين الجن والإنس صرفه عن سيره والانحراف به عن الصراط المستقيم.

وهذه العقبات هي:

❁ **العقبة الأولى:** عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

❁ **العقبة الثانية:** وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في

(١) «الفوائد البازية» (٤/ ٢٩٦).

الدين التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قَلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى؛ كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفاجئهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السُّنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

❁ **العقبة الثالثة:** وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة.

والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه؛ لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا

والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

❁ **العقبة الرابعة:** وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقفزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالًا منه؛ فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، ثُمَّ ضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلًا بِقَوْمٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَعْوَزَهُمُ الْحَطَبُ، فَجَعَلَ هَذَا يَجِيءُ بِعُودٍ، وَهَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، فَكَذَلِكَ فَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجْتَمِعُ عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يَسْتَهِينُ بِشَأْنِهَا حَتَّى تُهْلِكَهُ**»[١].

❁ **العقبة الخامسة:** وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٣١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٠٢).

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

❁ **العقبة السادسة:** وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأُوَل.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ...**» الحديث[١]، وفي الحديث الآخر: «**الْجِهَادُ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْأَمْرِ**»[٢]، وفي الأثر الآخر: إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) **صحيح**: انظر حديث رقم (٥١٣٦) في «صحيح الجامع».

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

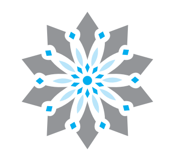
أحدها: قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠]، سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَامَّةً كَانَتَا تُرْغِمَانِ أَنْفَ الشَّيْطَانِ**»، وفي رواية: «**تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ**»[1] وسماها المُرْغِمَتَيْنِ.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٨٧، رقم ١١٨٤٨)، وأبو داود (١٠٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٣).

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأُوَل اهـ[١].



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٤٥-٢٤٩) بتصرف يسير.



المبحث الثاني

في بيان الهداية ومراتبها وسائر ما يتعلق بها

الفصـــل الأول : في التعريف بالهداية والأدلة على وجوب طلبها.

الفصــل الثاني: في مراتب الهداية:

الفصـل الثالـث: يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا.

الفصل الرابــع: الاحتجاج بالقدر على ترك الهداية شأن إبليس وأهل الغواية.

الفصل الخامس: فصل في أركان الهداية.

الفصل السادس: في بيان أن العبد مهيَّئ لقبول الهداية.



الفصل الأول

في التعريف بالهداية والأدلة على وجوب طلبها

لما كانت سعادة العبد في الدنيا والآخرة متوقفة على الهداية إلى الصراط المستقيم لزمه أن يتعرف على الهدى، ولما كانت الهداية لا تُنال إلا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ ومَنِّهِ على عبده لزم العبد أن يسأل ربه ويدعوه أن يمُنَّ عليه بها، وأن يأخذ بأسباب نيلها؛ فإن حاجته إليها فوق كل حاجة، وافتقاره إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيها بعدد أنفاسه، وها نحن نذكر تعريف الهداية وبعض أدلة الكتاب والسنة على وجوب طلبها من الله عَزَّوَجَلَّ واللجوء إليه عَزَّوَجَلَّ.

التعريف بالهداية:

لقد تضافرت عبارات أهل العلم على أن الهداية هي سلوك الصراط المستقيم الموصل إلى مرضاة رب العالمين والثبات عليه؛ يقول ابن القيم: والهدى هو الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية؛ فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله، فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته، لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا، وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده، فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية، ذكر أعلى الغايات وهو:

❁ الوصول إلى الله سبحانه.

❁ وأقرب الطرق والوسائل إليه وهي طريقة الهدى.

❁ وتوحيد الطريق: فلا يعدل عنها إلى غيرها.

❁ وتوحيد المطلوب: وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم -وبالله التوفيق-.

والهدى التام يتضمن:

❁ توحيد المطلوب. ❁ وتوحيد الطلب.

❁ وتوحيد الطريق الموصلة.

❁ والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها.

فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السُّنَّة، فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما يَنْصِب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

وهذا يكون بأمرين هما: العلم النافع والعمل الصالح:

فالعلم النافع: هو الذي يهدي إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى معرفة مراضيه، كما يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

والعمل الصالح: هو ما كان مقتضى هذا العلم وثمرته، وهو بشيئين: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ لا يعبد إلا الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له ولا يعبد إلا بما شرع على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو الهدى ودين الحق الذي أُرسل به نبينا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣].

يقول الإمام ابن القيم: هِيَ الْعلم بِالْحَقِّ مَعَ قَصده وإيثاره على غَيره؛ فالمهتدي هُوَ الْعَامِل بِالْحَقِّ المريد لَهُ، وَهِي أعظم نعْمَة لله على العَبْد، وَلِهَذَا أمرنا سُبْحَانَهُ أن نَسْأَلهُ هِدَايَة الصِّرَاط الْمُسْتَقيم كل يَوْم وَلَيْلَة فِي صلواتنا الْخمس؛ فَإِن العَبْد مُحْتَاج إلى معرفَة الْحق الَّذِي يرضي الله فِي كل حَرَكَة ظاهرة وباطنة، فَإِذا عرفهَا فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى من يلهمه قصد الْحق فَيجْعَل إِرَادَته فِي قلبه ثمَّ إِلَى من يقدره على فعله، وَمَعْلُوم أن مَا يجهله العَبْد أضعاف أضعاف مَا يعلمهُ، وَإِن كل مَا يعلم أَنه حق لَا تطاوعه نَفسه على إرادته، وَلَو أراده لعجز عَن كثير مِنْهُ، فَهُوَ مُضْطَر كل وَقت إِلَى هِدَايَة تتَعَلَّق بالماضي، وبالحال، والمستقبل.

أما الْمَاضِي: فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى محاسبة نَفسه عَلَيْهِ، وَهل وَقع على السداد فيشكر الله عَلَيْهِ ويستديمه أم خرج فِيهِ عَن الْحق فيتوب إِلَى الله تَعَالَى مِنْهُ، ويستغفره ويعزم على أن لَا يعود؟

وَأما الْهِدَايَة فِي الْحَال: فَهِيَ مَطْلُوبَة مِنْهُ، فَإِنَّهُ ابْن وقته فَيحْتَاج أن يعلم حكم مَا هُوَ متلبس بِهِ من الأفعال هَل هُوَ صَوَاب أم خطأ؟

وَأما الْمُسْتَقْبل: فحاجته فِي الْهِدَايَة أظهر؛ ليَكُون سيره على الطَّرِيق، وَإِذا كَانَ هَذَا شَأْن الْهِدَايَة علم أن العَبْد أشد شَيْء اضطرارًا إليها، وأن مَا يُورِدهُ بعض النَّاس من السُّؤَال الْفَاسِد، وَهِي: أنا إِذا كُنَّا مهتدين، فَأَي حَاجَة بِنَا أن نسْأَل الله أن يهدينا؟! وَهل هَذَا إلا تَحْصِيل الْحَاصِل؟

أفسد سُؤال وأبعده عَن الصَّوَاب، وَهُوَ دَلِيل على أن صَاحبه لم يُحَصِّل معنى الْهِدَايَة وَلَا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فَلذَلِك تكلّف من تكلّف الْجَواب عَنهُ بَأن الْمَعْنى:

ثبتنا على الْهِدَايَة وأدمها لنا، وَمن أحاط علمًا بحقيقة الْهِدَايَة، وحاجة العَبْد إليها علم أن الَّذِي لم يحصل لَهُ مِنْهَا أضعاف مَا حصل لَهُ أنه كل وَقت مُحْتَاج إِلَى هِدَايَة خَاصَّة، ثمَّ إن لم يصرف عَنهُ الْمَوَانِع والصوارف الَّتِي تمنع مُوجب الْهِدَايَة وتصرفها لم ينْتَفع بالهداية، وَلم يتم مقصودها لَهُ، فَإِن الحكم لَا يَكْفِي فِيهِ وجود مقتضيه، بل لَابُد مَعَ ذَلِك من عدم مانعه ومنافيه، وَمَعْلُوم أن وساوس العَبْد وخواطره وشهوات الغي فِي قلبه كل مِنْهَا مَانع وُصُول أثر الْهِدَايَة إليه، فَإِن لم يصرفهَا الله عَنهُ لم يهتد هدًى تَامًّا، فحاجاته إِلَى هِدَايَة الله لَهُ مقرونة بأنفاسه وَهِي أعظم حَاجَة للْعَبد. اهـ[1].

قال العلامة السعدي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة ويبين طرق الخير والشر، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معلٍ للأقدار. اهـ[2].

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر]، أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه؛ فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين. اهـ[3].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٠٩).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٧٦٤).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ١١).

الأدلة على وجوب طلبها من الله:

ذكرنا أن سعادة العبد لا تُنال إلا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ولذا تضافرت أدلة الكتاب والسنة على وجوب طلبها من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه وحده الذي يقدر عليها إذ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فكما أنه وحده هو الذي يشرح صدر العبد ويوفقه ويهديه، فهو عَزَّوَجَلَّ الذي يعصمه من الزيغ والضلال.

ومن الأدلة على ذلك دعاء النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في القنوت: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ**» أي: أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم، وكان يفتتح صلاة الليل صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدعائه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

وفي «سورة الفاتحة» التي قسمها الله عَزَّوَجَلَّ بينه وبين عبده؛ فنصفها ثناء عليه، ونصفها دعاء، كان هذا الدعاء هو ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «لما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب عَلَّمَ اللهُ عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم؛ توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في «صحيحه»، والإمام أحمد والترمذي»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢/ ١٨٥).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣١).

وكان دعاء الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

يقول العلامة السعدي في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي: كثير الفضل والهبات، وهذه الآية تصلح مثالًا للطريقة التي يتعين سلوكها في المتشابهات؛ وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أُخَر عن الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم؛ كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]، ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة:١٢٧]، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالعبد إذا تولى عن ربه ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولَّاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء والله أعلم[1].

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

ثم قال تعالى عنهم مخبرًا أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ أي: من عندك ﴿ رَحْمَةً ﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي

(١) «تفسير السعدي».

-وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب- قالا جميعًا: حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**» ثم قرأ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨]، رواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد ابن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة -وهي أسماء بنت يزيد بن السكن- سمعها تحدث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكثر في دعائه: «**اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»، قالت: قلت: يا رسول الله، وإن القلب ليتقلب؟ قال: «**نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله** عَزَّ وَجَلَّ**، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**». فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب(١).



(١) «تفسير القرآن العظيم».



الفصل الثاني
في مراتب الهداية

لقد دلت نصوص الوحي على أن الهداية المذكورة في القرآن على أربع مراتب:

أولها: الهداية العامة. الثانية: هداية الدلالة والبيان.

الثالثة: هداية التوفيق والإلهام. الرابعة: الهداية إلى الجنة أو النار.

أولًا: الهداية العامة:

وهذه الهداية هي أن الله عَزَّوَجَلَّ هدى كل مخلوق لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه، وأودع فيه ما يعينه على ذلك.

وهي من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأني لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثًا ولم يترك سدىً، وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهانًا قاطعًا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

فالهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأسمائه وصفاته وتوحيده، ولذا لما قال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه]، والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما

خلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه.

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:٥١] أي: فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟! والمعنى: لو كان ما تقوله حقًّا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه؟! فاحتج عليه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل، ولذا أجابه موسى بأحسن جواب فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢] أي: أحصى أعمالهم وحفظها وأودعها في كتاب ليجازوا بها يوم القيامة[(١)].

ولنتكلم الآن عن بعض الأمثلة لهذه الهداية:

النموذج الأول (النملة):

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء؛ فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها، وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها، عمدت إلى ما ينبت منها، ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل، وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

---

(١) من «شفاء العليل» مختصرًا.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم، فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول؛ وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبيّ الله وجنوده، بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧]، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل؛ كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم؛ فقد عرفت هي والنمل أنّ لكل طائفة منها مسكنًا، لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرّفته بها، وعرّفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسّم نبيّ الله ضاحكًا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نَهى عَنْ قَتلِ النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهُدْهُدِ، وَالصُّرَدِ»[١].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٣٢، ٣٤٧)، وأبو داود (١٤/ ١٧٨) في «الأدب» باب: في قتل الذر، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤) في «الصيد»، باب: ما نهي عن قتله، ورواه غيرهم، وصححه الألباني كما في «الإرواء» (٨/ ١٤٢). =

وفي الصحيح[(١)]، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبّح، فهلّا نملة واحدة؟!**».

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها، بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد» من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبيّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء، تدعو مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا، فقد كفيتم -أو سقيتم- بغيركم[(٢)].

وقال الإمام أحمد حدثنا، قال: خرج سليمان بن داود يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنّا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا. فقال: «ارجعوا، فقد سقيتم بدعوة غيركم».

ولقد حدثني أنّ نملة خرجت من بيتها، فصادفت شقّ جرادة، فحاولت أن تحمله، فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه، فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله، فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم، فرفعته، فطافت، فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك

= **والصرد**: هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٢١).

(١) رواه البخاري (٣٠١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **ضعيف**: رواه أحمد في «الزهد»، ورواه الطحاوي في «تهذيب المشكل» (١/ ٣٧٣)، والخطيب (١٢/ ٦٥) عن أبي هريرة مرفوعًا، وفيه سلامة بن روح ومحمد بن عزيز الأيليّان؛ فيهما ضعف. وله طريق أخرى ضعيفة أيضًا.

مرارًا، فلما كان في المرة الأخرى، استدار النمل حلقة، ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدّة ادّخارها للغذاء، استحضر نملة، وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم؛ ولكن لما رأيتك مشغولًا بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي بقي من عمري، فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاءًا لنفسي؛ فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف، وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتعذّر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى؛ فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس، فأدنيته إلى أنفك، لم تشمّ له رائحة، فإذا وضعته على الأرض، أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله، ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك

من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟! فهي تدرك بالشّمّ من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله، ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاءوا كخيط أسود، يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا فلا، ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أنّ لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعات، وكلّ نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحبّ شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة، ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناءًا كبيرًا، ويملؤه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به، فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك، وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار، ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجه في الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط[١].

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٨٨: ١٩٢).

النموذج الثاني (الهدهد):

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل]، وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبيّ الله سليمان، وقد فقده وتوعّده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيّجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل:٢٢]، وفي ضمن هذا أنّي أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته. ثم وصفه بأنه نبأ يقين، لا شكّ فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر لتلقّي الخبر، وأوجبت له التشوّف التام إلى سماعه ومعرفته؛ وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٣]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك بحيث ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه وأنه ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم

في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل:٢٤]؛ وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدّهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه: إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصّه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب «الكشاف»: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من ﴿ يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، جلّت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كلّ شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدميّ عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله(١).

المرتبة الثانية من مراتب الهداية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين:

وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق؛ إذ المقصود منها إبانة طريق الحق بإيضاح المحجة سواء سلكها المبين له أم لا، وإن كانت شرطًا فيه أو جزء سبب.

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٩٣-١٩٤).

قلت: إنما حرموا التوفيق عقوبة لهم على تكذيبهم وانصرافهم عن الهدى كما سيأتي تفصيل ذلك.

وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب؛ بل قد يتخلف عنه المقتضى، إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥].

فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها؛ فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه؛ كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]؛ أي: جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٨٦].

وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله؛ حيث قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢]، ونفى عنه ملك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق والإلهام؛ بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٥] إلى أن قال: ... فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه؟

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الصراط المستقيم؛ حتى كأنهم يشاهدونه عيانًا، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرًا وباطنًا، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب.

ومن حال بينه وبينها منهم؛ بزوال عقل أو صغر -لا تمييز معه-، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه؛ حتى يقيم عليه حجَّته.

فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه، نعم.. قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم، والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم.

وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه -وهو فعله ومشيئته وتوفيقه- فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه، وحيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع واعرف قدره، والله المستعان. اهـ[١].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان:٣][٢].

المرتبة الثالثة: وهي هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل:

وهذه المرتبة أخص من مرتبة هداية الدلالة والبيان؛ فالدلالة والبيان هي بيان الحق وإقامة الأدلة عليه، أما التوفيق والإلهام فهي شرح الصدر لقبوله والتوفيق للاستجابة له والعمل به، وهداية التوفيق والإلهام لا يقدر عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، إنما يقدر عليها الرب عَزَّوَجَلَّ وحده، وهي تستلزم أمرين:

أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي؛ قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الكهف:١٧] فلا سبيل إلى وجود الأثر

(١) «شفاء العليل» (ص١٧٢، ١٧٣).

(٢) «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي (ص٨).

إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧] وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩] وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣] فلولا هدايته عَزَّوَجَلَّ لهم لما اهتدوا، والآيات في هذ المعنى كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الهداية نوعان: هداية إلى الصراط، وهداية فيه؛ فالهداية إلى الصراط: بتوفيق العبد وشرح صدره بوضع قدمه على أوله للسير فيه، والهداية فيه: بمعرفة تفاصيله ومعالمه، والتثبيت عليه، والسير فيه إلى نهايته، وحفظ العبد من الزيغ والضلال، ولذا فحاجة العبد إلى هذه الهداية بعدد أنفاسه وإلا حرم الوصول؛ إذ أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط: بالانحراف عنه جملة وتفصيلًا، وضلال في الصراط: بالانحراف فيه بعدما هدي إليه.

ونضرب لذلك مثالًا يوضحه؛ فالهداية إلى الصراط كمن يمنّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه بحب السنة والالتزام والتوبة فيشرع في التقرب إلى الله بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، فهذا هدي إلى الطريق يلزمه هداية أخرى في الطريق بمعرفة تفاصيل الحق ومنهج أهل السنة وما يحبه الله ويرضاه، والمبادرة في ذلك حتى آخر السير مع الثبات على الصراط والبعد عن الزيغ والانحراف وإلا ينكب في الصراط، ويضل أثناء السير بانحرافه عن منهج أهل السنة كمن يشرع في التقرب إلى الله، ثم تزين له شياطين الإنس والجن البدع والضلالات كبدعة التكفير أو غيرها، فلا يزداد من الله إلا بعدًا فهذا حرم الهداية في الطريق.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط، والهداية فيه: كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه وضلال فيه، فالأول: ضلال عن معرفته، و الثاني: ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة. انتهى كلامه.

ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق والهداية فيها؛ فإن العبد قد يهتدي إلى طريق قصده وتنزيله عن غيرها ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها وأوقات السير من غيره وزاد المسير وآفات الطريق، ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] قال: «سبيلًا وسنة» وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير؛ فالسبيل: الطريق؛ وهي المنهاج والسنة الشرعة، وهي تفاصيل الطريق وحزوناته وكيفية المسير فيه وأوقات المسير، وعلى هذا فقوله: (سبيلًا وسنة) يكون السبيل: المنهاج، والسنة: الشرعة؛ فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير، وفي لفظ آخر: سنة وسبيلًا؛ فيكون المقدم للمقدم والمؤخر للتالي. اهـ[(١)].

---

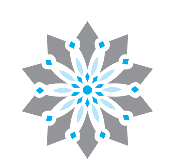
(١) «شفاء العليل» (ص١٦٧، ١٦٩).

المرتبة الأخيرة من مراتب الهداية:

المرتبة الرابعة: وهي الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات].

وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها؛ فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة، جزاءًا وفاقًا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].



الفصل الثالث

يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا
ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا

إن الله عَزَّوَجَلَّ يمن على من يشاء من عباده بالهداية فضلًا منه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيعصمه من الزيغ والضلال ويعافيه من الانحراف. كما أنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يضل من يشاء فيخذله عدلًا منه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ. كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء:٩٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

فمن يشأ وفقه بفضله	ومن يشأ أضله بعدله
فمنهم الشقي والسعيد	وذا مقرب وذا طريد
لحكمة بالغة قضاها	يستوجب الحمد على اقتضاها

فبيده تعالى الهداية والإضلال، والإشقاء والإسعاد، فهدايته العبد وإسعاده فضل ورحمة، وإضلاله وإبعاده عدل منه وحكمة، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله، وهو الحكيم العليم الذي يضع الأشياء مواضعها، وهو أعلم بمن هو محل الهداية فيهديه، ومن هو محل الإضلال فيضله، وهو أحكم الحاكمين، وهو عليم بالمتقين، وعليم بالظالمين، وعليم بالمهتدين، وهو أعلم بالشاكرين، وأعلم بما في صدور العالمين، وهو أعلم حيث يجعل

رسالته، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، وله في ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة. اهـ[(١)].

يقول العلامة الشيخ الفوزان -حفظه الله-: الله سبحانه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهذا بقضاء الله وقدره، ولكنه يهدي من يعلم أنه يصلح للهداية، ويهدي من يحرص على طلب الهداية ويُقبل عليها، فإن الله ييسره لليسرى، ويضل من يشاء بسبب إعراضه عن طلب الهداية والخير، فيضله الله عقوبة له على إعراضه وعدم رغبته في الخير، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل] فصار السبب من العبد، والقدر من جهة الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل] فصار السبب من العبد والقدر من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قدره الله عقوبة له.

فقدر الله الهداية فضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وتكرم على الشخص الذي يريد الخير ويريد الهداية، فييسره الله للخير ولفعله، وهذا لمصلحته، لا مصلحة لله عَزَّوَجَلَّ، وأما إضلال الضالين فعدل منه عَزَّوَجَلَّ جزاءً لهم على إعراضهم وعدم إقبالهم على الخير وعلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، لم يظلمهم شيئًا، ولهذا نجد في الآيات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨] فجعل الظلم والكفر والفسق أسباب لعدم الهداية، وهذه من أفعال العباد جازاهم عليها عدلًا منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا ظلمًا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣]، فلا يليق به سبحانه أن يكرم من هذا وصفه، وأيضًا لا يليق به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يُضيع عمل العاملين، قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول» (١/ ٢٢٥-٢٢٦).

نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:٢٢]، ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم] هذا جور ينزه الله عنه؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لا يُضيع أجر من عمل صالحًا، ولا يجازي أحدًا بغير فعله، وبغير كسبه ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٣٩] فالعمل كله للعبد من الخير والشر، والمجازاة من الله فضلًا وعدلًا(١).

فالعباد يتقلبون بين فضله وعدله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله. اهـ(٢).

قال الحافظ الحكمي: فأفعال الله عَزَّوَجَلَّ كلها خير بصدورها عن علمه وحكمته وعدله وغناه التي هي من صفات ذاته، فإذا أراد بعبده الخير أعطاه من فضله علمًا وعدلًا وحكمة، فيصدر منه الإحسان والطاعة، والبر والخير، وإذا أراد به شرًا، أمسكه عنه وخلاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح، وليس منعه لذلك ظلمًا منه -سبحانه- فإنه فضله يؤتيه من يشاء، وليس من منع فضله ظالمًا ولاسيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به، وأيضًا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته -تعالى- أن يلطف بعبده، ويعينه ويوفقه، ولا يخلي بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله، وهو أعلم بمن يصلح لذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

(١) «جامع شروح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢١٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥، ٤٤٦).

فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]. اهـ(١).

يقول العلامة ابن القيم مبينًا أن التوفيق فضل الله عَزَّوَجَلَّ والخذلان عدله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وكيف أنه لا يظلم أحدًا: «وقد ضُرب للتوفيق والخذلان مثل ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولًا، وكتب معه إليهم كتابًا يعلّمهم أنّ العدو مصبّحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرّب البلد، ومهلك من فيها، وأرسل إليهم أموالًا ومراكب وزادًا وعُدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم؛ فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم، فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملًا، وساقوهم سوقًا إلى الملك، اجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم، وأسر من أسر...»(٢).

يقول العلامة صالح آل الشيخ: «إذا تبين لك معنى التوفيق والخذلان فإنه سيَتَبيَّن لك بوضوح معنى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يضل من يشاء ويهدي من يشاء» اهـ.

* **التوفيق:** عند أهل السنة والجماعة هو إمداد الله عَزَّوَجَلَّ بعونه، إمداد الله عَزَّوَجَلَّ العبد بعونه -يعني: بإعانته- وتسديده وتيسير الأمر وبذل الأسباب المعينة عليه.

فإذًا التوفيق فَضْل لأَنَّهُ إعانة.

* **وأما الخذلان:** فهو سلب التوفيق، فهو سلب الإعانة.

يعني: التوفيق: إعطَاءٌ، مَنٌّ، كَرَمٌ، وأما الخذلان فهو: عَدْلٌ وسلبٌ؛ لأنَّ العبد أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ القُدَرْ، أعطاه الصفات، أعطاه ما به يُحَصِّلُ الهدى، أعطاه الآلات، يَسَّرَ له، أنزل عليه الكتب، فلذلك هو بالآلات التي معه قامت عليه الحجة.

(١) «معارج القبول» (١/ ٢١٨).
(٢) «مدارك السالكين» (١/ ٤٤٧).

لكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنعم على من يشاء من عباده بالتوفيق فيعينهم ويسدِّدُهُم ويفتح لهم أسباب تحصيل الخير.

ويمنع من شاء ذلك فلا يُسَدِّدُهُ ولا يُعِينُهُ ولا يفتح له أسباب الخير بل يتركه ونفسه، وهذا معنى أنه عَزَّوَجَلَّ يخذل؛ يعني: لا يُعِين، يترك العبد وشأنه ونفسه، ومعلومٌ أنّ العبد عنده آلات يُحَصِّلُ بها الأشياء لكن هناك أشياء ليست في يده.

هناك أشياء لا يمكن له أن يُحَصِّلَهَا، فهذه بيد من؟ بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الإنسان مرتبط قَدَرُهْ بأشياء كثيرة من الأسباب التي تفتح له باب الخير.

مثل -مثلًا- أن يكون ذا أصحابٍ أو أن يُيَسَّرَ له أصحاب يعينونه على الخير.

مثل أن لا يكون في طبعه الخَلْقِي مزيد شهوة، إما شهوة كِبرْ من كبائر القلوب أو من كبائر البدن، هذه الأشياء موجودة فيه خَلْقًا، خارجة عن اختياره وتصرفه.

فالله عَزَّوَجَلَّ يُوَفِّقْ بعض العباد بمعنى: يعينهم على الأمر الذي يريدونه، إذا انفَتَحَ له بابُ خَيرٍ وأَرَادَهُ فَيُحِسُّ العبد أنه أُعين على ذلك، إذا أَرَادَ فِعْلَ أَمْرٍ ما من الخير يَسَّرَ الله عَزَّوَجَلَّ له أسبابًا تعينه فانفتح له طريق الخير، وآخَرُ حَضَرَتْهُ الشياطين وغلبته على مُرَادِهِ وأَطَاعَهَا؛ لأنه لم يُزَوَّد بِوِقَايَة، بإعانة، بتوفيق يمنعه من ذلك؛ فإذًا صار عندنا أنَّ مسألة إضلال الله عَزَّوَجَلَّ مَن يشاء هو بخذلان الله عَزَّوَجَلَّ العباد، وهداية الله عَزَّوَجَلَّ من يشاء بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ بعض العباد، يعني: أعان هذا وترك ذاك ونفسه، كونه عَزَّوَجَلَّ أعان هذا هو بمشيئته؛ فإذًا من يشأ الله يُضْلِلْهُ يعني: يَسْلُبُ عنه التوفيق فَيَخْذُلُهُ فينتج من ذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سَلَبَ عنه إعانته، سَلَبَ عنه تسديده، سَلَبَ عنه أسباب الخير، سَلَبَ عنه غَلْقْ أبواب الشر من الكفر وما دونه.

فإذًا يكون ضالًا، لا هو بفعل نفسه؛ لأَنَّهُ وُكِلَ إلى نفسه؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يَمُنْ على هذا بمزيد توفيق، فإذًا مسألة الإضلال في كلام أهل السنة والجماعة عدل، ومسألة الهداية فضْل، ولهذا أعظم الفضل والنعمة والإحسان نعمة التوفيق، الذي هو في الحقيقة نعمة الهداية.

فإذًا نقول: إنّ ربنا عَزَّوَجَلَّ مَنَّ على عباده المؤمنين فوفّقهم، أَعَانَهُم، سَدَّدَهُم، هَيَّأَ لَهُمْ الأسباب التي توصلهم إلى الخير، حبَّبَ لهم العلم، حبّب لهم الجهاد، حبّب لهم الحكمة، حبّب لهم الأمر والنهي، حبّب لهم أهل الخير إلى آخره، حبّب لهم كتاب مثل ما جاء.

وهذا التوفيق درجات أيضًا ففي البداية يكون فتح باب:

- وبعض الناس إذا انْفَتَحَ له باب التوفيق نَفْسُهُ فيها قُبح فتنازعه للشر فيكون بين هذا وهذا.

- وآخر نَفْسُهُ فيها خير، فَمِنَ الخير الذي معه أَنَّهُ ينتقل من توفيقٍ إلى توفيقٍ أعظم منه حتى يصل بسبب عمله أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنْعِمْ عليه بتوفيقٍ زائد ثم بتوفيقٍ زائد ثم بتوفيقٍ زائد، مثل ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره «**وما تقرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عليهِ وما يزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ** -يعني: وُفِّقَ في سمعه- **الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ويَدَهُ الّتي يَبْطِشُ بِها ورِجْلَهُ الّتي يَمْشِي بِها**»[١] هذا كله توفيق، مزيد إعانة في هذه الجوارح، الجوارح هذه هي التي عليها الحساب والتي يُحاسب العبد على ما صنعت جوارحه.

إذًا فحقيقة إضلال الله عَزَّوَجَلَّ من شاء ليست جبرًا، وهداية الله عَزَّوَجَلَّ من شاء ليست جبرًا.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وإنما العبد عنده آلات، خوطب بالتكليف وعنده الآلات، ولو كانت جبرًا لصارت التكاليف -بعث الرسل، إنزال الكتب، الأمر والنهي، الجهاد- لكان كل ذلك عبثًا.

والله عَزَّوَجَلَّ منزّه عن العبث؛ لأنَّ العبث سلب الحكمة وشر والله عَزَّوَجَلَّ الشر ليس إليه، لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء].

فالله عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عن العبث، يُضلِ جبرًا ويسلب العبد الاختيار بالمرة ثم يُحاسبه ويُنْزِل عليه الكتب ويرسل الرسل ويأمره بالتكاليف كيف يكون ذلك؟!

يكون كالغريق الذي يقال له: إياك أن تبتل بالماء.

وهذا العياذ بالله هو حقيقة قول الجبرية الذين قال قائلهم:

ألقاه في اليمّ مكتوفًا وقال له ... إيّاكَ إيّاك أن تبتلّ بالماء

وهذا يُنَزَهُ عنه الحكيم الخبير جَلَّجَلَالُهُ.

فمن عَرَفَ صفات الله عَزَّوَجَلَّ وعَلِمَ حكمته، فإنَّ القول بالجبر في حقيقة الأمر إبطال للتكاليف أو رجوع إلى أفعال الله عَزَّوَجَلَّ بأنها لعب ولا حكمة فيها ولا تُوافق غاياتٍ محمودة، والله عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام] هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [النحل:٣٥].

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله، وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لابد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام:١٤٨] فلو كان لهم علم -وهم خصوم ألداء- لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨] ومَنْ بنى حججه على الخرص والظن فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟!

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذرًا، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلًا.



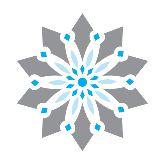
ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك؛ فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجبًا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام المصيب عندهم والمخطئ. اهـ[(١)].



(١) «تيسير الكريم المنان في تفسر كلام المنان» (ص٢٥٨).



الفصل الرابع

الاحتجاج بالقدر على ترك الهداية
شأن إبليس وأهل الغواية

ذكرنا فيما مضى أن الله عَزَّوَجَلَّ يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلًا.

فمن يشأ وفقه بفضله ... ومن يشأ أضله بعدله

والله عَزَّوَجَلَّ أعلم بمحال فضله ومحال عدله، فهل يصح بعد ذلك الاحتجاج بالقدر على ترك الهداية؟!

الجواب: لا بالطبع، بل إن الاحتجاج بالقدر على ترك الهداية هو سبيل إبليس ومن اتبعه كما حكى القرآن عنهم ذلك حيث قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٣٩]، وذكر عن أوليائه من أهل الشرك والكفران أنهم قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يس:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠].

فهذه أربعة مواضع حكى فيها الاحتجاج بالقدر عن أعدائه وإمامهم في ذلك عدوه الأحقر إبليس؛ حيث احتج عليه بقضائه، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٣٩].

فإن قيل: كيف نجمع بين الآيات التي تذم قول المشركين في أنهم ما عصوا إلا قدرًا وبين الآيات التي تبين أنه لا يقع شيء إلا بقدر الله، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣].

قيل: إنما أنكر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم احتجاجهم بالقدر على معصيته ومخالفته، وهم في ذلك أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين، فهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتًا لله عَزَّوَجَلَّ وربوبيته ووحدانيته وافتقارًا إليه وتوكلًا عليه واستعانة به؛ إذ لو قالوا ما قالوه على هذا الوجه؛ لكانوا مصيبين، وإنما قالوه معارضين لشرعه ودافعين به لأمره، فعارضوا شرعه وأمره ودفعوه بقضائه وقدره، كذلك ذمهم الله عَزَّوَجَلَّ لأنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبته لما شاءه ورضاه به وإذنه فيه، ومعلوم أن الله لا يحب الكفر والشرك ولا يرضى لعباده ذلك، وإن كان قد شاء وقوعه بمشيئة كونية لحكمة بالغة، وإنما تعبدنا الله عَزَّوَجَلَّ بالإرادة الشرعية هذه التي يحبها الله ويرضاها.

خلاصة القول: إن هؤلاء المحتجين بالقدر على ما هم فيه من الكفر والشرك والانحراف عن الهداية قد جمعوا بين أنواع من الضلال منها: معارضة الأمر بالقدر ودفعه به، ومنها: الإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه، حيث شاءه وقضاه وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر، والصواب أن للفعل وجهين: وجه قائم بالرب تعالى وهو قضاؤه وقدره له وعلمه به ووجه قائم بالعبد، وهو ما يصدر عنه من أفعال.

والعبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول وملاحظة للوجه الثاني، والكمال أن لا يغيب بأحد الملاحظتين عن الأخرى؛ بل يشهد قضاء الرب وقدره ومشيئته ويشهد مع ذلك فعله وجناياته وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية فيجتمع في قلبه معنى

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر] فمن الناس من يتسع قلبه لهذين الشهودين، ومنهم من يضيق قلبه عن اجتماعهما.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأين هذا من احتجاج أعداء الله بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه وعُبَّاد هؤلاء الكفرة يشهدون أفعالهم كلها طاعات لموافقتها المشيئة السابقة ولو أغضبهم غيرهم وقصر في حقوقهم لم يشهدوا فعله طاعة مع أنه وافق فيه المشيئة، فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي الآمن هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتبعهم لهواه، وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩] فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه، ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فإن هذا يتضمن أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهًا غيره؟!

فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل؛ فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك فكانت حجة الله هي البالغة وحجتهم هي الداحضة، وبالله التوفيق»[١].

(١) «شفاء العليل» (ص٣٤، ٣٥).

أما الاستدلال بما ورد في حديث لوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الخروج من الجنة بقوله: «**أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ**»[١]، ورد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «**أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي**»، والادعاء بأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ احتج بالقدر فاستدلالهم هذا مردود من وجوه:

أولها: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحتج بالقدر على المعصية كيف وقد أخبر القرآن عنه أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣] فآدم قد تاب من ذنبه فأين هذا من الذين يحتجون بالقدر على الاستمرار في الذنوب والآثام وتصويب ما هم عليه؟!

ثانيًا: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد احتج بالقدر على مصيبة خروجه من الجنة، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي: «أتلومني على مصيبة قدرت عليّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة؟».

ثالثًا: أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في آخر، ينفع إذا كان بعد وقوع التوبة وترك معاودة الذنب كما هو حال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فيه من التوحيد ومعرفة أسماء الرب والبراءة من الحول والقوة فلم يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا ولم يبطل به شريعة، ويضر الاحتجاج به -أي: بالقدر- إذا كان سينتج عنه إبطال الشرع والإصرار على الذنب كما احتج به المصرون على شركهم وعبادة غير الله.

فإن قيل: قد احتج عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقدر في ترك قيام الليل وأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلُّونَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهَا بَعَثَهَا، فَانْصَرَفَ

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (٤/ ٢٢٦، رقم ٤٧٠٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٠٢).

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤][١].

يرد على هذا بأن عليًّا لم يحتج بالقدر على ترك واجب ولا فعل محرم؛ إنما قال إن نفسه ونفس فاطمة بيد الله، فإذا شاء أن يوقظهما ويبعث أنفسهما من النوم بعثهما وهذا موافق لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة ناموا في الوادي: «**إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حَيْثُ شَاءَ وَرَدَّهَا حَيْثُ شَاءَ**»[٢]، وهذا احتجاج صحيح صاحبه يعذر فيه؛ لأن النائم غير مفرط، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح، وقد أرشد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد الاحتجاج به كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[٣].

فأمره بالحرص على ما ينفعه، والمستعين بالله ضد العاجز؛ فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه.

فإن فاته ما لم يُقَدَّرْ له؛ فله حالتان: حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى «لو»؛ ولا فائدة في «لو» ههنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي (١٦١١)، وصححه الألباني.
(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٩)، وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (٦٩٤٥).

والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان؛ فنهاه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي: النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قُدر له لم يفُت ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده[(١)].

ولاشك أن الاحتجاج بالقدر على ترك الهداية والطاعة وتبرير الزيغ والضلال ينافي عدل الرب عَزَّوَجَلَّ المنزه عن الظلم حيث قال: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا**»[(٢)]، ولو فتش الظالم الجاهل لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء.

وإن تعجب فعجب حال هؤلاء المحتجين بالقدر على المعصية والمخالفة، فلو مسهم أحد بسوء أو جنى عليهم جناية، ثم احتج عليهم بالقدر ما قبلوا منه ذلك، ولبادروا بعقوبته، فتبًا له يتعامل مع ربه بما لا يرضى به من الناس له، ولله در الإمام ابن القيم إذ يقول: «فتبًا له ظالمًا في صورة مظلوم وشاكيًا والجناية منه، قد جد في الإعراض وهو ينادي طردوني وأبعدوني، ولّى ظهره الباب بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها ويقول:

دعاني وسد الباب دوني فهل إلى ... دخولي سبيل بينوا لي قصتي؟!

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها ويستغيث: ما حيلتي وقد قدموني إلى الحفيرة وقذفوني فيها؟! والله كم صاح به الناصح: الحذر الحذر! إياك إياك! وكم أمسك بثوبه! وكم أراه مصارع المقتحمين! وهو يأبى إلا الاقتحام:

(١) باختصار من «شفاء العليل» (ص٣٧، ٣٨).
(٢) رواه مسلم (٦٧٣٧).

وكم سقت في آثارها من نصيحة وقد يستفيد الظنة المتنصح

يا ويله ظهيرًا للشيطان على ربه خصمًا لله مع نفسه جبري المعاصي قدري الطاعات عاجز الرأي مضياع لفرصته قاعد عن مصالحه معاتب لأقدار ربه يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره؛ فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه أو نهاه عن شيء فارتكبه وقال: «القدر ساقني إلى ذلك» لما قبل منه هذه الحجة ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك! بل إذا أساء إليك مسيء وجنى عليك جان واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه وتضاعف جرمه عندك ورأيت حجته داحضة ثم تحتج على ربك به وتراه عذرًا لنفسك! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عللك ومكنك من التزود إلى جنته وبعث إليك الدليل وأعطاك مؤنة السفر وما تتزود به وما تحارب به قطاع الطريق عليك؛ فأعطاك السمع والبصر والفؤاد وعرفك الخير والشر والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله وأنزل إليك كتابه ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم وموالاته دونهم؛ بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولى بك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠] طرد إبليس عن سمائه وأخرجه من جنته وأبعده من قربه إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك آدم لكرامتك

عليه فعاداه وأبعده ثم واليت عدوه وملت إليه وصالحته وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد وتقول:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب[(١)]

سبيل النجاة ركوب سفينة الأمر ومدافعة القدر بالقدر:

ذكرنا أنه لا يجوز الاحتجاج بالقدر على مخالفة الأمر وإبطال الشرائع لتبرير الانحراف عن الهداية، ولاشك أن الكلام في هذه المسألة هو دخول في المعترك الصعب الذي ذلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وافترقت بالسالكين فيه الطرقات وأشرفوا إلا أقلهم على أودية الهلكات.

وكيف لا؟ وهو البحر الذي تجري سفينة راكبه في موج كالجبال، والمعترك الذي تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال وتحيرت فيه عقول ألباء الرجال ووصلت الخليقة إلى ساحله يبغون ركوبه.

فمنهم: من وقف مطرقًا دهشًا لا يستطيع أن يملأ منه عينه ولا ينقل عن موقفه قدمه، قد امتلأ قلبه بعظمة ما شاهد منه فقال: «الوقوف على الساحل أسلم وليس بلبيب من خاطر بنفسه.

ومنهم: من رجع على عقبيه لما سمع هديره وصوت أمواجه ولم يطق نظرًا إليه.

ومنهم: من رمى بنفسه في لجحه تخفضه موجة وترفعه أخرى.

فهؤلاء الثلاثة على خطر؛ إذ الواقف على الساحل عرضة لوصول الماء تحت قدميه، والهارب ولو جد في الهرب فماله مصير إلا إليه، والمخاطر ناظر إلى الغرق كل ساعة بعينيه.

---

(١) نقلًا عن «مدارج السالكين» لابن القيم الجوزية (١/ ٢١٣، ٢١٤).

وما نجا من الخلق إلا الصنف الرابع وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر، فلما قربت منهم ناداهم الربان ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١] فهي سفينة نوح حقًّا وسفينة من بعده من الرسل، من ركبها نجا ومن تخلف عنها الغرقى، فركبوا سفينة الأمر بالقدر تجري بهم في تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار، فلم يك إلا غفوة حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤] دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة كقوم نوح أغرقوا ثم أحرقوا ونودي عليهم على رؤوس العالمين: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] ثم نودي بلسان الشرع والقدر تحقيقًا لتوحيده وإثباتًا لحجته وهو أعدل العادلين ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩][(١)].

قلت: القائل أبو عبدالله؛ يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بركوب سفينة الأمر أي: الدخول في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتحقيق العبودية التامة له سبحانه وعدم الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمره وإبطال شرعه؛ بل يدافع القدر بالقدر ويفر من قدر الله إلى قدر الله بالامتثال لما أمر على ألسنة الرسل، واجتناب ما قد نهى عنه وزجر، ولزوم الأدب بتعظيم الحرمات والوقوف عند حدود الله والحذر من مجاوزتها، فبذلك تكون النجاة والموفق من وفقه الله.

أحوال الراكب في سفينة الأمر:

ثم يبين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الراكب في سفينة الأمر وظيفته مدافعة القدر بالقدر، فيدفع السيئة وهي من قدره بالحسنة وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره أيضًا.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٢).

وكما يدفع العدو من الكفار الذي داهم بلاد الإسلام بقدر الله بالجهاد في سبيل الله، وهو أيضًا من قدر الله فيدفع قدر الله بقدر الله، وإليك نص عبارته رَحِمَهُ ٱللَّهُ فما أنفعها لمن تأملها ووعاها، و﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الجمعة:٤]، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وراكب هذا البحر في سفينة الأمر وظيفته مصادمة أمواج القدر ومعارضتها بعضها ببعض وإلا هلك؛ فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني: الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون مستسلمًا مع القدر» ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة وهي من قدره بالحسنة وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات عاصيًا، وكذلك البرد والحر والعطش كلها من أقداره وأمر بدفعها بأقدار تضادها والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن هذا المعنى كل الإفصاح إذ قالوا: يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقى نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هِيَ مِنْ قَدَرِ الله»(١).

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (٣ / ٤٢١)، والترمذي (٢٠٦٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٤٣٧)، والحاكم (٤/ ١٩٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقد ساق الألباني عدة طرق ومرويات للحديث، ثم قال: «وبالجملة فأرجو أن يصل الحديث إلى مرتبة الحسن» اهـ. «مشكلة الفقر» (ح١١).

وفي الحديث الآخر: «**إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض**»[١].

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟!

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح وهي من القدر.

دفع القدر بالقدر:

ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه؛ كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله؛ كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

شيخ الإسلام يفند شبهات المحتجين بالقدر على المخالفات:

سئل شيخ الإسلام عن قوم يحتجون بالقدر ويقولون: قد قضي الأمر من الذر فالسعيد سعيد، والشقي شقي من الذر، ويحتجون بقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وَيَقُولُونَ: مَا لنا فِي جَمِيع الْأَفْعَال قدرَة، وَإِنَّمَا الْقُدْرَة لله تَعَالَى؛ قدر الْخَيْر وَالشَّر وَكتبه علينا.

وَالمرَاد بَيَان خطأ هَؤُلَاءِ بالأدلة القاطعة، وَيَقُولُونَ: من قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله دخل الْجنَّة ويحتجون بِالْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ قَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِن زنا وَإِن سرق**» وَبِغير ذَلِك.

---

(١) **حسن**: رواه الحاكم بلفظ: «فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١/ ٦٦٩ رقم ١٨١٣)، وقال: «صحيح الإسناد»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٣٩).

فَمَا الْجَوَاب عَن هَذَا جَمِيعه أفتونا مَأْجُورِينَ.

فَأجَاب -نفعنا الله بِعُلُومِهِ-: الْحَمد لله رب الْعَالمين، هَؤُلَاءِ الْقَوْم إِذا صَبَرُوا على هَذَا الِاعْتِقَاد كَانُوا أكفر من الْيَهُود وَالنَّصَارَى؛ فَإِن النَّصَارَى وَالْيَهُود يُؤمنُونَ بِالْأَمر وَالنَّهْي والوعد والوعيد وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب، لَكِن حرفوا وبدلوا وآمنوا بِبَعْض وَكَفرُوا بِبَعْض كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء] فَإِذا كَانَ من آمن بِبَعْض وَكفر بِبَعْض فَهُوَ كَافِر حَقًّا، فَكيف بِمن كفر بِالْجَمِيعِ، وَمن لم يقر بِأَمْر الله وَنَهْيه ووعده ووعيده؛ بل ترك ذَلِك محتجًا بِالْقدرِ، فَهُوَ أكفر مِمَّن آمن بِبَعْض، وَكفر بِبَعْض وَقَول هَؤُلَاءِ يظْهر بُطْلَانه من وُجُوه:

الْوَجْه الأول: أَن الْوَاحِد من هَؤُلَاءِ إِمَّا أَن يرى الْقدر حجَّة للْعَبد، وَإِمَّا أَن لَا يرَاهُ حجَّة للْعَبد؛ فَإِن كَانَ الْقدر حجَّة للْعَبد فَهُوَ حجَّة لجَمِيع النَّاس؛ فَإِنَّهُم كلهم مشتركون فِي الْقدر، وَحِينَئِذٍ يلْزمه أَن لَا يُنكر على من يَظْلمه ويشتمه وَيَأْخُذ مَاله وَيفْسد حريمه وَيضْرب عُنُقه وَيهْلك الْحَرْث والنسل، وَهَؤُلَاء جَمِيعهم كذابون متناقضون؛ فَإِن أحدهم لَا يزَال يذم هَذَا وَيبغض هَذَا وَيُخَالف هَذَا حَتَّى إِن الَّذِي يُنكر عَلَيْهِم يبغضونه ويعادونه وَيُنْكِرُونَ عَلَيْهِ، فَإِذا كَانَ الْقدر حجَّة لمن فعل الْمُحرمَات وَترك الْوَاجِبَات لَزِمَهُم أَن لَا يذموا أحدًا وَلَا يبغضوا أحدًا وَلَا يَقُولُونَ عَن أحد أَنه ظَالِم وَلَو فعل مَا فعل، وَمَعْلُوم أَن هَذَا لَا يُمكن أحدًا فعله، وَلَو فعل النَّاس هَذَا لهلك الْعَالم، فَتبين أَن قَوْلهم فَاسد فِي الْعقل كَمَا أَنه كفر فِي الشَّرْع، وَأَنَّهُمْ كذابون مفترون فِي قَوْلهم: إِن الْقدر حجَّة للْعَبد.

الْوَجْه الثَّانِي: أَن هَذَا يلْزم مِنْهُ أَن يكون إِبْلِيس وَفرْعَوْن وَقوم نوح وَقوم هود وكل من أهلكه الله بذنوبه معذورين، وَهَذَا من الْكفْر الَّذِي اتّفق عَلَيْهِ أَرْبَاب الْملَل.

الْوَجْه الثَّالِث: أَن هَذَا يلْزم مِنْهُ أَن لَا يفرق بَين أَوْلِيَاء الله وأعداء الله، وَلَا بَين الْمُؤمنِينَ وَالْكفَّار، وَلَا أهل الْجنَّة وَأهل النَّار وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١] وَذَلِكَ أَن هَؤُلَاءِ جَمِيعهم سبقت لَهُم من الله تَعَالَى السوابق وَكتب الله تَعَالَى مقاديرهم قبل أَن يخلقهم، وهم مَعَ هَذَا قد انقسموا إِلَى سعيد بِالْإِيمَان وَالْعَمَل الصَّالح، وَإِلَى شقي بالْكفْر والفسوق والعصيان؛ فَعلم بذلك أَن الْقَضَاء وَالْقدر لَيْسَ بِحجَّة لأحد على معاصي الله تَعَالَى.

الْوَجْه الرَّابِع: أَن الْقدر نؤمن بِهِ وَلَا نحتج بِهِ؛ فَمن احْتج بِالْقدرِ فحجته داحضة، وَمن اعتذر بِالْقدرِ فعذره غير مَقْبُول، وَلَو كَانَ الِاحْتِجَاج بِالْقدرِ مَقْبُولًا لقبل من إِبْلِيس وَغَيره من العصاة، وَلَو كَانَ الْقدر حجَّة للعباد لم يعذب الله أحدًا من الْخلق لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَة، وَلَو كَانَ الْقدر حجَّة لم يقطع سَارِق وَلَا قتل قَاتل وَلَا أقيم حد على ذِي جريمة وَلَا جوهد فِي سَبِيل الله وَلَا أَمر بِمَعْرُوف وَلَا نهي عَن مُنكر.

الْوَجْه الْخَامِس: أَن النَّبِي ﷺ سُئِلَ عَن هَذَا فَإِنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْكُم من أحد إِلَّا وَقد كتب مَقْعَده من النَّار ومقعده من الْجنَّة**»، فَقيل: يَا رَسُول الله، أَفلا نَدع الْعَمَل ونتكل على الْكتاب؟ فَقَالَ: «**لَا، اعْمَلُوا فَكل ميسر لما خلق لَهُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم، وَفِي حَدِيث آخر فِي الصَّحِيح أَنه قيل لَهُ: يَا رَسُول الله، أَرَأَيْت مَا يعْمل النَّاس فِيهِ ويكدحون

أفيما جَفتْ بِهِ الأقلام وطويت بِهِ الصُّحُف، أم فيما يستأنفون مما جاءهم به؟ -أو كما قيل- فقال: «**بل فيما جفت به الأقلام وطويت به الصحف**»، فَقيل: فَفِيمَ الْعَمَل؟ فَقَالَ: «**اعْمَلُوا فَكل ميسر لما خلق لَهُ**».

الْوَجْه السَّادِس: أَن يُقَال: إِن الله تَعَالَى علم الْأُمُور وكتبها على مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ قد كتب أَن فلَانًا يُؤمن وَيعْمل صَالحًا فَيدْخل الْجنَّة، وَفُلَانًا يفسق ويعصي فَيدْخل النَّار كَمَا علم وَكتب أَن فلَانًا يتَزَوَّج امْرَأَة ويطؤها فيأتيه ولد، وَأَن فلَانا يَأْكُل وَيشْرب فيشبع ويروى، وَأَن فلَانًا يبذر الْبذر فينبت الزَّرْع، فَمن قَالَ: إِن كنت من أهل الْجنَّة فَأَنا أدخلها بِلَا عمل صَالح كَانَ قَوْله قولًا بَاطِلًا متناقضًا لما علمه الله وَقدره، وَمِثَال من يَقُول: أَنا لَا أَطَأ امْرَأَة فَإِن كَانَ الله قضى لي بولد فَهُوَ يُولد فَهَذَا جَاهِل؛ فَإِن الله تَعَالَى إِذا قضى بِالْوَلَدِ قضى أَن أَبَاهُ يطَأ امْرَأَة فتحبل وتلد، فَأَما الْوَلَد بِلَا حَبل وَلَا وَطْء فَإِن الله لم يقدره وَلم يَكْتُبهُ، كَذَلِك الْجنَّة إِنَّمَا أعدهَا الله تَعَالَى لِلْمُؤْمِنين، فَمن ظن أَنه يدْخل الْجنَّة بِلَا إِيمَان كَانَ ظَنّه بَاطِلًا، وَإِذا اعْتقد أَن الْأَعْمَال الَّتِي أَمر الله بهَا لَا يحْتَاج إِلَيْهَا وَلَا فرق بَين أَن يعملها أَو لَا يعملها كَانَ كَافِرًا وَالله قد حرم الْجنَّة إِلَّا على أَصْحَابهَا.

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] فَمَنْ سَبقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى فَلَابُدَّ أَنْ يَصِيرَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِنَ اللهِ حُسْنَى، وَلَكِنْ إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللهَّ سَابِقَةٌ اسْتَعْمَلَهُ بِالْعَمَلِ الَّذِي يَصِلُ بِهِ إِلَى تِلْكَ السَّابِقَةِ؛ كَمَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهَّ أَنْ يُولَدَ لَهُ وَلَدٌ، فَلَابُدَّ أَنْ يَطَأَ امْرَأَةً يُحْبِلَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ الْأَسْبَابَ وَالْمُسَبَّبَاتِ فَسَبَقَ مِنْهُ هَذَا وَهَذَا؛ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ أَحَدًا سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ حُسْنَى بِلَا سَبَبٍ فَقَدْ ضَلَّ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مُيَسِّرُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَهُوَ قَدْ قَدَّرَ فِيمَا مَضَى هَذَا وَهَذَا[(١)].

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٦٦).



الفصل الخامس

فصل في أركان الهداية

وأركان الهداية ثلاثة:

١- **فاعل:** وهو الله تعالى. ٢- **المحل القابل:** وهو قلب العبد.

٣- **الآلة والأداة:** وهو الكتاب المنزل.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا أركان الهداية؛ فها هنا ثلاثة أشياء فاعل وقابل وآلة.

فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل.

وإليك تفصيل هذا الإجمال:

الركن الأول:

الهادي وهو الله سبحانه، فهو المصدر الأساس للهداية قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩]، فمن أسمائه الحسنى الهادي.

وقد ذكر الله هذا الاسم في موضعين من القرآن؛ وهما قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤]، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، والهادي هو الذي يهدي عباده ويرشدهم ويدلهم إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم، وهو الذي بهدايته اهتدى أهل ولايته إلى طاعته ورضاه، وهو الذي بهدايته اهتدى الحيوان لما يصلحه واتقى ما يضره.

فالله هو الذي خلق المخلوقات وهداها ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى]، فهداها الهداية العامة لمصالحها وجعلها مهيأة لما خلقت له، وهداها هداية البيان؛ فأنزل الكتب وأرسل الرسل وشرع الشرائع والأحكام والحلال والحرام، وبيّن أصول الدين وفروعه، وهدى وبين الصراط المستقيم الموصل إلى رضوانه وثوابه، ووضح الطرق الأخرى ليحذرها العباد، وهدى عباده المؤمنين هداية التوفيق للإيمان والطاعة، وهداهم إلى منازلهم في الجنة كما هداهم في الدنيا إلى سلوك أسبابها وطرقها فقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، يتناول جميع هذه الأنواع من الهداية.

قال ابن عطية في «تفسيره»: «وقوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ عام لجميع الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات؛ فقال الفراء: معناه: هدى وأضل، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى، قال: وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مصِّ الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس إلى الخير والشر والبهائم للمراتع، قال: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

وقد قوى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرير ابن عطية وأيده فقال: والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات كما قال ابن عطية، وهكذا كثير من تفسير السلف يذكرون من النوع مثالًا؛ لينبهوا به على غيره أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه. اهـ[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي بيده أنواع الهدايات الأربع: الهداية العامة، وهداية الدلالة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام، والهداية في الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار، فمن شاء

---

(١) «فقه الأسماء الحسنى» لعبد الرزاق بن عبد المحسن (ص١٣٧، ١٣٨).

الله هداه، ومن شاء أضله، وليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافًا بدون حكمة أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن، وإنما تقوم على أساس ترتب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها كما دل على ذلك كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣] فبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال؛ فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وحديث الرسول قاضٍ بذلك حيث قال: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا**»[(١)] اهـ[(٢)].

فالعبد مفتقر إلى ربه غاية الافتقار في كل أحواله الدينية والدنيوية بأن يهديه إلى صالح أمره، وأن يقيه من الانحراف والضلال؛ قال شيخ الإسلام: «ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمور هدى إلى أصلها دون تفصيلها أو هدى إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها؛ ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٦١، رقم ٥٧٤٣)، ومسلم (٤/ ٢٠١٢، رقم ٢٦٠٧).
(٢) «الفوائد» (١/ ١٢٩) نقلًا عن: «السنن الإلهية في تغير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم» لأيمن بن نبيه ابن غنام المغربي.

له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو محتاج إلى الهداية، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الحاجات إلى أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله؛ وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة، وقد بيَّن أن أهل هذه النعمة مغايرون للمغضوب عليهم -اليهود- والنصارى الضالين. اهـ[(١)].

الركن الثاني: المحل المقابل: وهو القلب الحي الذي يعقل عن الله:

يقول الإمام ابن القيم: والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي، المنيب إلى ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل، فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى في السورة التي نزلها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]. اهـ[(٢)].

وقال في معرض كلامه عن قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس] أي: حي القلب، وقوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

---

(١) «فقه الأسماء الحسنى» لعبد الرزاق بن عبد المحسن (ص١٤٠، ١٤١).
(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٤٧١).

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه»، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير؛ وهو غفلة القلب عن تعقّل ما يقال له والنظر فيه وتأمّله.

فإذا حصل المؤثر وهو سماع القرآن، وكان القلب حيًّا ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكّر...، إلى أن قال: فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه، تام الفطرة، فإذا فكّر بقلبه، وجال بفكره، دلّه قلبه وعقله على صحّة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]. وقال في حقّهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحيّ الواعي. اهـ[(١)].

والقلوب متفاوتة فيما تسعه من العلم والهدى المنزل؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

فشبه العلم بالماء المنزل من السماء؛ لأن به حياة القلوب كما أن بالماء حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية لأنها محل العلم كما أن الأودية محل الماء؛ فقلب يسع علمًا كثيرًا

(١) «الفوائد» (ص٩: ١٠).



وواد يسع ماءًا كثيرًا، وقلب يسع علمًا قليلًا وواد يسع ماءًا قليلًا، وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاء -أي: يرمى به ويخفى- والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، فإذا ترابى فيها الحق ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثم تذهب جفاء ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد:١٧] فهذا المثل الآخر وهو الناري؛ فالأول للحياة والثاني للضياء. اهـ[1].

الركن الثالث: سبل الهداية وأدواتها وهم الرسل والكتب:

لما كانت الهداية بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، وإفراده بالعبادة بفعل مراضيه واجتناب مساخطه أمرًا تعجز العقول البشرية عن إدراكه اقتضت رحمة الله عَزَّوَجَلَّ إرسال الرسل وإنزال الكتب.

يقول ابن القيم: فمن أين له معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له تفاصيل مواقع محبته ورضاه وسخطه وكراهته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه وما أعد لأوليائه وما أعد لأعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحدًا من خلقه إلا من ارتضاه من رسله، إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته[2].

---

(١) «الرسل والرسالات» لعمر بن سليمان الأشقر (ص٣٣، ٣٤)، وسوف نورد مبحثًا كاملًا عن القلب وأقسامه.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١١٧).

ولذا كانت حاجة الناس إلى ما بعثوا به من الهدى فوق كل حاجة، وضرورته إليه فوق كل ضرورة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا، وَحَاجَتُهُمْ إلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ؛ فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟ وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنْ الْأَمْوَاتِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ؛ كَانَ مَيِّتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ...

وبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن الله سَمَّى رِسَالَتَهُ رُوحًا، وَالرُّوحُ إذَا عَدِمَ فَقَدْ فُقِدَتْ الْحَيَاةُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فَذَكَرَ هُنَا الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا: الرُّوحُ وَالنُّورُ. اهـ[(١)].

يقول ابن القيم مبينًا حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم:

ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق لا يكون إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم،

(١) «الرسل والرسالات» لعمر سليمان بن الأشقر (ص٣٢، ٣٣).

وأعمالهم، وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة؟! فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي:

.... وَمَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّـتٍ إِيْـلَامٍ[(١)]

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته و شأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[(٢)].

وبيَّن الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأصول الثلاثة التي عليها مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها لا سبيل إلى علمها إلا عن طريق الرسل، وهذه الأصول هي:

الأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

---

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره: «ومن يهن يسهل الهوان عليه» وهو في ديوانه من قصيدة يمدح بها أبا الحسن علي بن أحمد المري الخرساني.

(٢) «الرسل والرسالات» لعمر سليمان الأشقر (ص٣١، ٣٢).

ثم يقول: على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل إلى معرفتها، إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة؛ كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه.[(١)].

أقسام الناس بالنسبة للهدى والعلم الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الناس بالنسبة للهدى والعلم الذي بعث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسوا سواء؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «الصحيح»، عن أبي موسى: **«إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ** عَزَّوَجَلَّ **مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ»**[(٢)].

فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالنسبة إلى الهدي والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا ودعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء أتباع الرسل صلوات الله عليهم وسلامه حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكا الناس بها، وهؤلاء

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩٣-٩٤)، عن «الرسل والرسالات» (ص٣٥).
(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، الذين قال تعالى فيهم: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص:٤٥] البصائر في دين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالبصائر يدرك الحق ويعرف، بالقوى يتمكن من تبلغيه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهمًا خاصًّا؛ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل: هل خصكم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الثانية.

الطبقة الثانية: فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنزوها واتجروا فيها وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١).

وهذا عبد الله بن عباس –حبر الأمة وترجمان القرآن– مقدار ما سمع من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يبلغ نحو العشرين حديثًا الذي يقول فيه سمعت ورأيت، وسمع الكثير من الصحابة، وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علمًا وفقهًا.

---

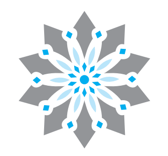
(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٨٠، رقم ١٦٧٨٤)، وأبو داود (٣/ ٣٢٢، رقم ٣٦٦٠)، وابن ماجه (١/ ٨٤، رقم ٢٣٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٣).

أما الطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدي الله ولم يرفعوا به رأسًا، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤] فهم الذين يضيقون الديار ويغلون الأسعار، إن هم أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية كان همه في نصرة النفس السبعية، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء؛ فإن النفوس ثلاثة: كلبية وسبعية وملكية؛ فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والعذرة، والسبعية لا تقنع بذلك بل بقهر النفوس تريد الاستعلاء عليها بالحق وبالباطل. اهـ[١].



(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص٥٧-٦٠) بتصرف يسير.

الفصل السادس

في بيان أن العبد مهيئ لقبول الهداية

لقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان مهيئًا لقبول الهداية والحق، مزودًا بما يعينه على ذلك من الأدوات والتي أعظمها الفطرة والعقل، وكذلك السمع والبصر، ثم بعث رسله بالهدى والحق الذي أودع الله في الفطرة والعقل حبه وقبوله ما لم يطرأ عليه ما يفسد فطرته ويغيرها عما فطرت عليه؛ وإليك تفصيل ذلك:

أولًا: الفطرة: ذكرنا أن الله عَزَّوَجَلَّ قد فطر الناس على معرفته تعالى والإيمان به؛ قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول العلامة السعدي: إن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها ووضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١). اهـ(٢).

يقول العلامة ابن القيم: فقد تبين دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له، وإن ذلك موجب فطرتهم، ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه ويقتضي حصول ضده. اهـ(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٣١٨)، ومسلم (٦٩٢٦).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٦١٥).
(٣) «شفاء العليل» (ص٦٠٤).

ويقول أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا كيف أن في الفطرة ما يقتضي محبة الحق ومعرفته: فإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق وأن يريد ما ينفعه، وعرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب ويريد ما يضره مال بفطرته إلى الأولى ونفر عن الثاني، فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة الخير، وحينئذ الإقرار بوجود فاطره وخالقه ومعرفته ومحبته والإيمان به وتعظيمه والإخلاص له إما أن يكون من النوع الأول أو الثاني، وكونه من الثاني معلوم الفساد بالضرورة، فتعين أن يكون من الأول، وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي محبته ومعرفته والإيمان به والتوسل إليه بمحابه[١].

ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة، ثم بعث الرسل مذكرين به، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥] وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٩]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية:٢١]، وقوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر:٤٩] وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة، فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مودعًا في الفطرة مركوزًا فيها، فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانية ووجوب شكره وطاعته، وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت

(١) «شفاء العليل» (ص٦٠٦).

ما جحدت فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعًا واختيارًا ومحبةً وإذعانًا بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها، ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا نحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها فيحق القول عليها بإقامة الحجة، فلا يكون سبحانه ظالمًا لها بتعذيبها وإشقائها، وقد بيّن ذلك سبحانه في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس].

فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر! ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة في فطرته، فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرًّا في فطرته شاهدًا به عقله، بل وجوارحه ولسان حاله، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان، وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢]. فتدبر هذا الفصل فإنه من الكنوز في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر ولله الحمد والمنة.

والمقصود أن الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها، ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئًا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها؛ فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو، وإنه المتصف بكل كمال

المنزه عن كل عيب ومثال فضلًا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد؛ لتكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وإزاحة العلة والشبهة ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢][(١)].

الإعراض عن الإيمان ظلم للفطرة:

ولهذا لا يكون الإعراض عن الإيمان إلا ظلمًا للفطرة وعنادًا واستكبارًا مخالفًا لما في النفس من اليقين والعلم الفطري الضروري الذي يبرز فيهم حال الاضطرار إليه في ساعات الضر؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، ولذلك ترى أشد الكافرين كفرًا وأعظمه ضلالًا من عاش عمره كله يتغنى على الكفر ويدعو إليه... تراه ساعة الموت يتصاغر ويتضاءل، وينكشف ما في فطرته التي أعماها طوال حياته فينطق مستنجدًا بالله! يا إلهي! يارب! ولكن بعد فوات الأوان!!

ومن ذلك ما كان من فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] إذ به ساعة الاضطرار وساعة الموت يكشف عما في داخل فطرته فيقول والموج يبتلعه ذاهبًا به إلى الموت كما وصف الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فلم يقبل إيمانه كما وصف الله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] وقبل ذلك قرره موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكشف له عما يكنه في داخل نفسه وفطرته من العلم اليقيني بالرب الخالق بقوله: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ حيث قال له موسى بشأن المعجزات: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٣٢٢، ٣٢٣).

بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فظل مكابرًا جاحدًا ما في نفسه وفطرته من العلم اليقيني بالرب الخالق ظلمًا وعلوًا، فذلك هو إصابة الفطرة بالعمى!! وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. اهـ[١].

ثانيًا: العقل: هو الحِجْر والنُّهى ضِدُّ الحُمْق، والمَعْقُول: ما تَعْقِله وتدركه بقلبك، والعَقْلُ: التَّثَبُّت في الأُمور، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المَهالِك -أَي: يَحْبِسه- فالعاقِلُ هو الذي يَحْبِس نفسه ويَرُدُّها عن هواها.

والعقل أيضًا: هو الفهم والمنع؛ لمنع صاحبه من العدول من سواء السبيل.

أما تعريف اصطلاحًا: فقد تنوعت عبارات أهل العلم فيه، وحاول بعضهم الجمع بينها فعرفه بأنه: «اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الحق والباطل، والنافع والضار، واختلف في موضعه هل هو في الرأس أم في القلب، والذي دلت عليه النصوص أنه في القلب؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج:٤٦]، فدل على أن القلب هو آلة التعقل، وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٧٩]، والفقه هو الفهم والإدراك، وهو عمل العقل، ومن عظم شأن العقل جعله الله مناطًا للتكليف، وذم الكفار بأنهم لا يعقلون؛ فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١]، وقال عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠] فالفرق بين أهل الإيمان الذين يعقلون، وأهل الكفر الذين لا يعقلون أن أهل الإيمان استعملوا عقولهم فيما خلقت له من إدراك الحقائق والتمييز بين الحق والباطل، أما أهل الكفر فقد عطلوا عقولهم فضلوا عن سواء السبيل.

---

(١) «موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان» (١/ ٣٨-٣٩).

العقل ومعرفة الرب:

فإن نظرة واحدة إلى السماوات والأرض وما بينهما والتفكر فيها خلقًا وإبداعًا تنظيمًا وتدبيرًا اختراعًا وعناية تجعل العقل يخر ساجدًا للذي فطر السماوات والأرض، الذي خلق الذرة والمجرة، وخلق الخلية والأحياء والعقل، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧] ثم هدى الذي خلق الشمس والقمر وجعل الليل والنهار خلفة، فالق الحب والنوى، فالق الإصباح، جاعل الظلمات والنور، من نظر كل هذا أو بعضه، ونظر في الكون وآياته المشهورة الباهرة المبدعة ثم لم يعرف أن وراءه خالقًا خلقه ومبدعًا أبدعه ومريدًا أراده ومدبرًا دبره؛ فإنه لا يعقل إذ هو ومن لا عقل له سواء، وبتعطيل العقل يكون قد أعمى عقله وذلك هو العمى الذي أشار إليه الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٢].

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ... ﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ ﴾، أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾، أي: عن حجج الله وآياته وبيناته، ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأضل منه كما كان في الدنيا –عياذًا بالله من ذلك–.

هذا وهو يرى أن العلم والحضارة والمختبرات والعلماء كل أولئك لا يخلقون ذبابة واحدة ولو اجتمعوا لها!! ولا يخلقون خلية حية!! بل ولا يخلقون ذرة من المادة من العدم إلى الوجود!! ولذلك جاءت خطابات القرآن بعد عرض مخلوقات الله تعالى المبدعة تبين أنها آيات للعقلاء وتصف المعرضين بأنهم لا يعقلون!

تأمل هذه الآيات ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة]، ومثل ذلك في القرآن كثير.

ومعرفة وجود الرب الخالق جَلَّجَلَالُهُ هي أوضح المعارف للعقل البشري على الإطلاق لكثرة الأدلة عليها، فقد أدت جميع الكائنات شهادتها بأنها ما وجدت من غير خالق، ولا هي أوجدت نفسها، وإنما أوجدها ربها جَلَّجَلَالُهُ حتى باتت هذه الحقيقة -حقيقة وجود الرب الخالق- معلومة بالضرورة العقلية ولا يمكن دفعها إلا إذا استغنى الإنسان عن استعمال عقله وتركه بلا تعقل ولا تفكر في كل ما حوله وفي نفسه، أو سلك مسلك الاستكبار على الإيمان ظلمًا للحقيقة وظلمًا لنفسه وعقله واستكبارًا على الإيمان.

فما من حقيقة توجد عليها من الأدلة التي تدل عليها بقدر الأدلة التي تدل على الرب الخالق جَلَّجَلَالُهُ كثرة وتنوعًا ودلالة من حيث إيجادها وتسخيرها وهدايتها لوظائفها في هذا الوجود بما يلائم حياة الإنسان والعقل يعرف ربه جَلَّجَلَالُهُ من غير أدنى مشقة له في معرفته والاهتداء إلى وجوده وعظمة صفاته، وإنما أرسل الرسل ليس لتعليم الناس وجود الله تعالى؛ فإن وجوده لا يشك فيه عاقل؛ قال تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩]، وإنما أرسلهم لتعليمهم العقائد والشرائع من أجل عبادة الله جَلَّجَلَالُهُ مزودين بالمعجزات التي تجعل العقل يذعن لصدق رسالاتهم التي أرسلوا بها من رب العالمين.

ذلك أن العقل يدرك أن الحدث المخلوق لا يخلق شيئًا وأن المتفرد بذلك خالقه كما قال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣]، وكما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وكما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور]. اهـ[1].

السمع والبصر:

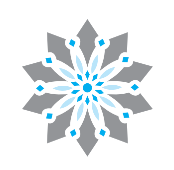
وكما زود الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان بالفطرة والعقل منَّ عليه كذلك بالسمع والبصر والفؤاد ليتمكن بهذه الأدوات من معرفة الحق وقبوله والتمييز بينه وبين الباطل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله -سُبْحَانَهُ- فِي الْقُرْآن يعدد على عباده من نعمه عَلَيْهِم أن أعطاهم آلات الْعلم، فيذكر الْفُؤَاد والسمع والأبصار، وَمرَّة يذكر اللِّسَان الَّذِي يترجم بِهِ عَن الْقلب، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَة النعم -وَهِي (سُورَة النَّحْل)- الَّتِي ذكر فِيهَا أصول النعم وفروعها ومتماتها ومكملاتها؛ فعدد نعمه فِيهَا على عباده وتعرف بهَا إليهم واقتضاهم شكرها، وَأخْبرْ أنه يُتمهَا عَلَيْهِم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأولها فِي أصول النعم وَآخرهَا فِي مكملاتها. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فَذكر -سُبْحَانَهُ- نعْمَته عَلَيْهِم بِأَن أخرجهم لَا علم لَهُم، ثمَّ أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة الَّتِي نالوا بهَا من الْعلم ما نالوه، وأنه فعل بهم ذَلِك ليشكروه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد]، فَذكر هُنَا الْعَينَيْنِ الَّتِي يبصر بهما فَيعلم المشاهدات، وَذكر

(١) نقلًا من «موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان» بتصرف يسير (١/ ٣٩-٤٢).

هِدَايَة النجدين وهما طَرِيقا الْخَيْر وَالشَّر، وَفِي ذَلِك حَدِيث مَرْفُوع ومرسل، وَهُوَ قَول أكثر الْمُفَسّرين، وتدل عَلَيْهِ الآية الأخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] وَالْهِدَايَة تكون بِالْقَلْبِ والسمع، فقد دخل السّمع فِي ذَلِك لُزُوما، وَذكر اللِّسَان والشفتين اللَّتَيْنِ هما آلَة التَّعْلِيم، فَذكر آلات الْعلم والتعليم وَجعلهَا من آياته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى قدرته ووحدانيته ونعمه الَّتِي تعرف بهَا الى عباده، وَلما كَانَت هَذِه الأعضاء الثَّلَاثَة الَّتِي هِيَ أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فِيهَا والحاكمة عَلَيْهَا خصها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذكر فِي السُّؤَال عَنْهَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦] فسعادة الإنسان بِصِحَّة هَذِه الأعضاء الثَّلَاثَة وشقاوته بفسادها؛ قَالَ ابْن عَبَّاس: «يسْأَل الله الْعباد فِيهَا استعملوا هَذِه الثَّلَاثَة: السّمع وَالْبَصَر والفؤاد، وَالله تَعَالَى أعطى العَبْد السّمع ليسمع بِهِ أوامر ربه ونواهيه وعهوده، وَالْقلب ليعقلها ويفقهها، وَالْبَصَر ليرى آيَاته؛ فيستدل بهَا على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هَذِه الآلات الْعلم وثمرته وَمُقْتَضَاهُ. اهـ[1].



(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٣٥).



المبحث الثالث

في أسباب الهدايـــة

أولًا: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والاعتصام به.

ثانيًا: الإخلاص.

ثالثًا: الاتباع الكامل للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

رابعًا: العلم النافع.

خامسًا: الدعاء.

سادسًا: مجاهدة العبد نفسه في ذات الله تعالى.

سابعًا: امتثال ما أمر الله به ورسوله واجتناب ما نهى عنه.

ثامنًا: الإنصاف والعدل.

تاسعًا: استفراغ الجهد في طلب الحق.

عاشرًا: الاستجابة للحق إذا تبين وإيثاره على كل شيء.

المبحث الثالث



في أسباب الهداية

ذكرنا -فيما سبق- أن حصول الهدى في القلب أمر لا يقدر عليه أحد إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو وحده عَزَّوَجَلَّ الذي ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٤٢] فضلًا منه تعالى، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:٢٧] عدلًا منه، لكن هذه الهداية لها أسبابها التي يقدر العبد عليها، والتي متى ما أتى بها وفقه الله عَزَّوَجَلَّ بفضله وشرح صدره بمنه وكرمه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦]، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢] فقد اتفق المسلمون على أن تلك الهداية المنفية ليست هي الهداية المثبتة له، لا نزاع في هذا بين أهل السنة والقدرية.

وأما الهداية المثبتة فهي: الدعوة والبيان، وهذه يشترك فيها من يحبه ومن لا يحبه، فإن عليه البلاغ المبين، وقد بلغ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ البلاغ المبين، وقال في آخر عمره في حجة الوداع: «**اللهم هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد**».

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصلت:١٧]، وقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]؛ فإن الهداية هداية الدلالة والإرشاد، بكلامه وبعلمه وأمره ونهيه وترغيبه وترهيبه، وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد، باتفاق المسلمين سنيهم وقدريهم؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يهدي القلوب، ويخلق الهدى فيها غير الله.

أما أهل السنة فيقولون: إن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله، ولكن العبد يقدر على أسبابه، وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، وهو المنفي عن الرسول بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص:٥٦]، وقوله: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]، وقوله: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. اهـ(١).

وقال الإمام ابن القيم: تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله –سبحانه– يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضًا فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور. اهـ(٢).

وها نحن نذكر أهم الأسباب الجالبة للهداية وهي:

أولًا: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والاعتصام به:

فهو أعظم أسباب الهداية على الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢].

يقول الحافظ ابن كثير: أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. اهـ(٣).

---

(١) «تلخيص كتاب الاستعانة» (ص٢٢٤، ٢٢٥).
(٢) «الفوائد» (ص١٤٦).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٠).

ويقول العلامة السعدي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك ولا بمعاص؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء. اهـ[(١)].

يقول العلامة القاسمي في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ يوم القيامة ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى الحق، ومن عاداهم في ضلال. اهـ[(٢)].

كما قال تعالى -على لسان إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

يقول العلامة القاسمي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:١٦١]: وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده المخلصين ﴿دِينٗا﴾ نصب على البدل من محل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ لأن معناه: هداني صراطًا؛ بدليل قوله: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء:١٧٥]، أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور. أي: عرفني دينًا. أو مفعول ﴿هَدَىٰنِي﴾ و(هدى) يتعدى إلى اثنين: ﴿قِيَمٗا﴾ صفة ﴿دِينٗا﴾ يقرأ بالتشديد أي: ثابتًا أبدًا لا تغيره الملل والنحل، ولا تنسخه الشرائع والكتب، مقومًا لأمر المعاش والمعاد، ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به، وأصله قوم كعوض، فأعلّ لإعلال فعله كالقيام.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٤١).

(٢) «تفسير القاسمي» (٤/ ٤٢٠).

﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ المتفق على صحتها وهي التي أعرض بها عن كل ما سواه تعالى. عطف بيان لـ﴿ دِينًا ﴾ ﴿ حَنِيفًا ﴾ حال من ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي: مائلًا عن كل دين وطريق باطل، فيه شرك ما. اهـ[١].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف:٦٤].

قال ابن كثير: أي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب وحده. اهـ[٢].

وقال العلامة السعدي أيضًا في تفسير نفس الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ الذي خلقنا وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي: طريق معتدل موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا فإنه من طرق الغيّ والضلال. اهـ[٣].

فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد[٤]، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:١٧٥].

يقول ابن القيم: ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من

(١) «تفسير القاسمي» (٤/ ٥٦٤، ٥٦٥).
(٢) «تفسير ابن كثير» (ص١٦٨٥).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٤٧٠).
(٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٨٧).

الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه[١].

يقول العلامة السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل -معرفة الحق والعمل به- أي: ومَنْ لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فتحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية. اهـ[٢].

ثانيًا: الإخلاص:

وهو من أعظم الأسباب الموصلة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم والثبات عليها إن لم يكن أعظمها، ولم لا؟ وصلاح القلب موقوف على الإخلاص، ولاشك أنه داخل في التوحيد وجزء منه، وإنما خصصناه بالذكر لأهميته.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٠).
(٢) «تفسير السعدي» (ص١٩٦).

قال الجنيد: إن الله عَزَّوَجَلَّ يخلص إلى القلوب من بره حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك؟

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن لله عبادًا عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب الخير أجمع، فمن أخلص لله عَزَّوَجَلَّ وتوجه بكليته إليه صادقًا متجردًا آواه الله إليه، ووفقه إلى الخير، وسلمه من كل سوء، وحفظه من كيد عدوه، ولما لا؟ وقد دخل بالإخلاص حصن الله الأعظم، فهو على صراط الله المستقيم، لا سبيل للشيطان على إغوائه وصرفه عن الحق؛ قال تعالى عن الشيطان وإغوائه لمن في الأرض: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر]، وفي قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ قول ثالث، وهو قول الكسائي: إنه على التهديد نظير قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤] كما يقال: طريقك عليّ، وممرك عليّ لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر]، فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم، فقرّر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم فلا سلطان لك على عباده الذين هم على هذا الصراط؛، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا لحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله...

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [الليل]، قال: فهذه مواضع في القرآن في هذا المعنى... واختار شيخنا قول مجاهد في السور الثلاث[1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٥-١٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لفظ هذه الآيات[(١)] فيه أن السبيل الهادي هو على الله.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في الآية الأولى ثلاثة أقوال، بخلاف الآيتين الآخرين[(٢)]؛ فإنه لم يذكر فيهما إلا قولاً واحدًا، فقال في تلك الآية: اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص؛ فالمعنى أن الإخلاص طريق إليّ مستقيم، و(علي) بمعنى (إلي).

والثاني: هذا طريق عليّ جوازه؛ لأني بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم، وهو خارج مخرج الوعيد، كما تقول للرجل تخاصمه: طريقك عليّ.

والثالث: هذا صراط عليّ استقامته. أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان.

قال: وقرأ قتادة ويعقوب: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلِيٌّ﴾ أي: رفيع... قال: القول الصواب هو قول أئمة السلف -قول مجاهد ونحوه- فإنهم أعلم بمعاني القرآن لاسيما مجاهد[(٣)].

وقال: وذكروا القراءة على يعقوب وغيره -أي رفيع- قال البغوي: وعبّر بعضهم عنه: «رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمال»[(٤)].

وقال: قوله: ﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره، وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فتعبد العباد له بإخلاص الدين له؛ طريق يدل عليه، وهو طريق مستقيم، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[(٥)].

---

(١) يعني: الحجر (٤١، ٤٢)، والنحل (٩)، والليل (١٢، ١٣).

(٢) الآية الأولى هي آية الحجر.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ١١٥، ١١٦).

(٤) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ١١٦).

(٥) المصدر السابق (٨/ ١١٩).

فسبيل الإخلاص هو سبيل الهدى والحق، هو الذي يعد أصحابه، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته، فيكون الله وليهم دون الشيطان، ليس للشيطان -بشرطه هو على نفسه- على عباد الله المخلصين سلطان، فهم بمنأى عن ذلك كله.

فلا يملك الشيطان أن يزين لهم؛ لأنه عنهم محصور، ولأنهم منه في حمى؛ ولأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة، وهم يعلّقون أبصارهم وقلوبهم بالله. إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع، فأما من يخلصون أنفسهم لله، فالله لا يتركهم للضياع، ورحمة الله أوسع بهم، ويكفيهم فخرًا وشرفًا أن الله نسبهم إلى نفسه.اهـ[(١)].

ثالثًا: الاتباع الكامل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وإذا كان التوحيد بإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بحقه هو أعظم أسباب الهداية؛ لأنه مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن الاتباع الكامل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آكد أسبابها، بل هو الطريق الموصلة إليها، لا تتم الهداية إلا به، وهل الصراط المستقيم إلا تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ وتجريد المتابعة الكاملة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي بعثه الله عَزَّوَجَلَّ بالهدى ودين الحق؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨].

يقول العلامة ابن كثير في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾: أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل؛ فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

(١) «تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص» للشيخ العفاني (ص١٢٩، ١٣٠، ١٣١).



﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره. اهـ[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب].

فقوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾ أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب، وقوله جلت عظمته: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند. اهـ[٢].

ويقول العلامة السعدي في: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضُلالًا إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة، قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به، لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة. اهـ[٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (ص١٧٤٠).
(٢) «تفسير ابن كثير» بتصرف يسير (ص١٥٠٨).
(٣) «تفسير السعدي» (ص٦٤١).

ولذا أمر الله عَزَّوَجَلَّ بطاعة رسوله وجعل اتباعه علامة محبته عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

يقول العلامة السعدي في «تفسيره»: هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة؛ فعلامة محبة الله، اتباع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟

فأجاب بقوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:٣٢] بامتثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخبر، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. اهـ[١].

قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[٢]، ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء والعلماء: ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تُحب، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم

---

(١) «تفسير السعدي» (ص١١٧).

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٠)، ومسلم (٤٥٩٠).

يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾... ثم قال: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: باتباعكم للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته، ثم قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص أو عام: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي: خالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسوله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي في تقريره عند قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ... ﴾ الآية [آل عمران:٨١]. إن شاء الله تعالى. اهـ[(١)].

وأمر الله عَزَّوَجَلَّ بطاعته وجعل الهداية في ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور:٥٤]، يقول العلامة السعدي: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ إلى الصراط المستقيم قولًا وعملًا، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال. اهـ[(٢)].

وبيَّن عَزَّوَجَلَّ أن الضلالة والزيغ والفتنة في مخالفته والإعراض عن هديه وسنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

وقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾، أي: عن أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسبيله هو ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما

(١) «تفسير ابن كثير» بتصرف يسير (ص٣٦١).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٥٤٨).

ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدّ**»، أي: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿**أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾، أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿**أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، أي: في الدنيا، بقتل، أو حَد، أو حبس، أو نحو ذلك. اهـ[(١)].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب:٣٦] أي: بيِّنًا لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولًا السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال. اهـ[(٢)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله -سبحانه- علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذِّلة والصَّغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة، وقد أقسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»، وأقسم الله -سبحانه- بأن لا يؤمنُ من لا يُحكِّمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به، ثم يسلم له تسليمًا، وينقاد له انقيادًا؛ وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب:٣٦]. اهـ[(٣)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (ص١٣٤٨).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٦٣٨).
(٣) «زاد المعاد» (١/ ١٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم؛ فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلبٌّ حيٌّ.

.... مَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّـتٍ إِيْـلَامٍ

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ ومستكثر ومحروم، و﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]. اهـ[١].

رابعًا: العلم النافع:

ومن الأسباب الجالبة للهداية العلم النافع، وهو العلم الذي يستوجب العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

(١) «زاد المعاد» (١/ ٣٢).

وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد:١٩].

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦].

لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، ﴿ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيه ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من



أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها. اهـ[١].

ولكننا ننبه هنا على أن العلم الذي يستلزم الهداية هو العلم الذي طلبه صاحبه لله وابتغى به وجهه تعالى، وصاحبه الإنصاف وسلم فيه من الآفات كالكبر، والعناد، والحسد وغير ذلك من الأخلاق الرديئة التي تمنع صاحبها من قبول الحق وتحول بينه وبين الهداية.

يقول الإمام ابن رجب: وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله، وإعظامه، وخشيته، ومهابته، ومحبته، ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه؛ من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه.

فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذل هيبة وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيمًا، ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في ذلك وكل ما هو فان لا يبقى من المال والجاه، وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعم الآخرة، وإن كان كريمًا على الله. اهـ[٢].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٦٤٨).

(٢) «فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب (ص٤٦، ٤٧).

أما العلم المجرد من الصدق والإخلاص وحده فلا يستلزم الهداية، فهذا عدو الله إبليس قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه فخالفه وعاند الأمر، وباء بلعنة الله، فلم ينفعه علمه لما أبى واستكبر.

وهذا فرعون وقومه قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

واليهود قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

والمقصود أن هناك الكثير من الخلق تنكبوا الصراط المستقيم، وضلوا عن سواء السبيل، مع أنهم كانوا يعلمون فلم ينفعهم العلم لفقدان شروط الانتفاع كالإخلاص والإنصاف والصدق والتجرد وغير ذلك، ووجود الموانع كالكبر والحسد والعناد، فلا يبلغ العبد مراده بنيل الهدى وإرضاء رب البرية إلا بقوتين: العلمية والعملية، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم: -القوة العلمية والعملية توصل إلى مرضاة الرب- قاعدة: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية؛ فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل.

فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق ومعاطبها.

وبالقوة العملية: يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وَعَدَها قُرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول فيُحْدِثُ لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول فَيُحَالُ بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرتِ وواصلتِ المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين.

فإن استصعبتْ عليه فليُذَكِّرْها مَا أمامها من أحبابها وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خَلْفَها مِن أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء؛ فإن رجعتْ فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها فإنهم وراءها في الطلب، ولابد لها مِن قسم مِن هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يُوحشه انفراده في طريق سفره ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟!

وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس]، ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكلما أدمن على السير وواظب عليه غدوًا ورواحًا وسحرًا قرب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أُنْسًا وكثافته لَطَافة ودَرنه طهارة.

فصل

في تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية

فمن الناس مَن يكون له القوة العِلْمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أَغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوة العَمَلية، يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل! وإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم! وهذا هو الغالب على أَكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمة الله ولا قوة إلا بالله.

ومِن الناس مَن تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند وُرُود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأَعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند وُرُود الشهوات، فَدَاءُ هذا من

جَهله ودَاءُ الأَول مِن فساد إرادته وضعف عَقله، وهذا حال أَكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة، يُرى أحدهم أَعمى عن مطلوبه لا يدري مَن يَعبد! ولا بماذا يَعبده! فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأْس أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنًا ما كان.

وهنا طُرق ومَتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عُمْيٌ عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه، ولا يقبل من أحد دينًا سِواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تَعَرَّفَ بها إلى عباده على ألسنة رُسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب! ولا عبادة له!

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله تعالى ورُجي له النفوذ، وقَوِيَ على رَد القواطع والموانع بحول الله وقوته؛ فإِن القواطع كثيرة، شأْنها شديد، لا يخلص مِن حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاءَ الله لأَزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد.

والوقت كما قيل: سيف فإن قطعته وإلا قطعك، فإذا كان السير ضعيفًا! والهمة ضعيفة! والعلم بالطريق ضعيفًا! والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة! فإنه جهد البلاء ودرك الشقاءِ وشماتة الأعداءِ! إِلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأْخذ بيده ويخلصه من أَيدى القواطع، والله ولى التوفيق. اهـ[١].

(١) «طريق الهجرتين» (ص٢٨٧: ٢٨٩).

خامسًا: الدعاء:

ومن أعظم الأسباب الجالبة للهداية الدعاء والاجتهاد فيه، فقد ثبت في «صحيح مسلم» في حديث ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**»[(١)]، وفيه أيضًا عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**»[(٢)]، وكان من دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وَالَّذِينَ هَدَاهُمْ اللهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَتَّى صَارُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ذَلِكَ: دُعَاؤُهُمْ اللهَ بِهَذَا الدُّعَاءِ[(٤)] فِي كُلِّ صَلَاةٍ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِحَاجَتِهِمْ وَفَاقَتِهِمْ إلَى اللهِ دَائِمًا فِي أَنْ يَهْدِيَهُمْ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ فَبِدَوَامِ هَذَا الدُّعَاءِ وَالِافْتِقَارِ صَارُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري: لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ طَرِيقٌ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنْ الِافْتِقَارِ، وَمَا حَصَلَ فِيهِ الْهُدَى فِي الْمَاضِي فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى حُصُولِ الْهُدَى فِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: ثَبِّتْنَا وَاهْدِنَا لُزُومَ الصِّرَاطِ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: زِدْنَا هُدًى يَتَنَاوَلُ مَا تَقَدَّمَ؛ لَكِنْ هَذَا كُلُّهُ هُدًى مِنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْعِلْمِ لَمْ يَحْصُلْ بَعْدُ، وَلَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا حَتَّى يَعْمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْعِلْمِ، وَقَدْ لَا يَحْصُلُ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢١)، والترمذي (٣٤٨٩)، وابن ماجه (٣٨٣٢)، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٧٤).

(٢) رواه مسلم (٧٠٨٦).

(٣) **صحيح**: رواه النسائي (٤/ ٥٤، ٥٥)، وأحمد (٤/ ٣٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (١/ ٢٨١).

(٤) أي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

الْعِلْمُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَلْ يَزُولُ عَنْ الْقَلْبِ، وَإِنْ حَصَلَ فَقَدْ لَا يَحْصُلُ الْعَمَلُ؛ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُضْطَرُّونَ إلَى هَذَا الدُّعَاءِ؛ وَلِهَذَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ؛ فَلَيْسُوا إلَى شَيْءٍ مِنْ الدُّعَاءِ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلَيْهِ، وَإِذَا حَصَلَ الْهُدَى إلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَصَلَ النَّصْرُ وَالرِّزْقُ وَسَائِرُ مَا تَطْلُبُ النُّفُوسُ مِنْ السَّعَادَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ. اهـ[(١)].

يقول ابن القيم في «الفوائد»: قد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله نفسك، وأن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك؛ فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا إلى نفسك وأنه لابيد العبد؛ فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطي العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «إنِّي لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء؛ فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه». وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك، يكون توفيقه سبحانه، وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم، وثباتهم، ورغبتهم، ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم، وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه؛ إلا بقيامه بالشكر، وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد؛ فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد. اهـ[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٦٧، ٦٨).
(٢) «الفوائد» (ص١١٠).

يقول شيخ الإسلام: وَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى مَقْصُودِ هَذَا الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ وَلَا وُصُولَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ، فَمَنْ فَاتَهُ فَهُوَ إِمَّا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا مِنَ الضَّالِّينَ، وَهَذَا الْهُدَى لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهُدَى اللهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُبَيِّنُ فَسَادَ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ.

وَأَمَّا سُؤَالُ مَنْ يَقُولُ: فَقَدْ هَدَاهُمْ، فَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى السُّؤَالِ، وَجَوَابُ مَنْ أَجَابَهُ بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ دَوَامُهَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ الْأَسْبَابِ وَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ؛ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَلَا يَفْعَلُ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَى أَنْ يَعْلَمَ وَيَعْمَلَ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ، وَإِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ إِرَادَةٌ جَازِمَةٌ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَكَرَاهَةٌ جَازِمَةٌ لِتَرْكِ الْمَحْظُورِ، فَهَذَا الْعِلْمُ الْمُفَصَّلُ وَالْإِرَادَةُ الْمُفَصَّلَةُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَحْصُلَ لِلْعَبْدِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ كُلُّ وَقْتٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ اللهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَهْتَدِي بِهِ فِي ذَلِكَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

نَعَمْ حَصَلَ لَهُ هُدًى مُجْمَلٌ بِأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَالرَّسُولَ حَقٌّ وَدِينَ الْإِسْلَامِ حَقٌّ وَذَلِكَ حَقٌّ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الْمُجْمَلَ لَا يُغْنِيهِ إِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُدًى مُفَصَّلٌ فِي كُلِّ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي يَحَارُ فِيهَا أَكْثَرُ عُقُولِ الْخَلْقِ وَيَغْلِبُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتُ أَكْثَرَ عُقُولِهِمْ لِغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْسَانُ خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا فَالْأَصْلُ فِيهِ عَدَمُ الْعِلْمِ وَمَيْلُهُ إِلَى مَا يَهْوَاهُ مِنَ الشَّرِّ، فَيَحْتَاجُ دَائِمًا إِلَى عِلْمٍ مُفَصَّلٍ يَزُولُ بِهِ جَهْلُهُ، وَعَدْلٍ فِي مَحَبَّتِهِ وَبُغْضِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَفِعْلِهِ وَتَرْكِهِ وَإِعْطَائِهِ وَمَنْعِهِ وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَنَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ، فَكُلُّ مَا يَقُولُهُ وَيَعْمَلُهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عِلْمٍ يُنَافِي جَهْلَهُ، وَعَدْلٍ يُنَافِي ظُلْمَهُ، فَإِنْ لَمْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ الْمُفَصَّلِ وَالْعَدْلِ الْمُفَصَّلِ كَانَ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَقَدْ

قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١، ٢] فَإِذَا كَانَ هَذِهِ حَالُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَكَيْفَ حَالُ غَيْرِهِ.

والصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ قَدْ فُسِّرَ بِالْقُرْآنِ وَبِالْإِسْلَامِ وَطَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ؛ فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَذَا وَبِغَيْرِهِ، فـ«الْقُرْآنُ» مُشْتَمِلٌ عَلَى مُهِمَّاتٍ وَأُمُورٍ دَقِيقَةٍ وَنَوَاهٍ وَأَخْبَارٍ وَقَصَصٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَهْدِ اللهُ الْعَبْدَ إِلَيْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِهَا ضَالٌّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ «الْإِسْلَامُ» وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ الْمَكَارِمِ وَالطَّاعَاتِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَكَذَلِكَ «الْعِبَادَةُ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ»، فَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ حَاجَتِهِ إِلَى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَرْزُقُهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ رِزْقُهُ مَاتَ وَالْمَوْتُ لَابُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهُدَى بِهِ كَانَ سَعِيدًا قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ، وَكَانَ الْمَوْتُ مُوَصِّلًا إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ النَّصْرُ إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غُلِبَ حَتَّى قُتِلَ فَإِنَّهُ يَمُوتُ شَهِيدًا، وَكَانَ الْقَتْلُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْهُدَى أَعْظَمُ مِنْ الْحَاجَةِ إِلَى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ؛ بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا هُدِيَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] وَكَانَ مِمَّنْ يَنْصُرُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ نَصَرَ اللهَ نَصَرَهُ اللهُ وَكَانَ مِنْ جُنْدِ اللهِ وَهُمْ الْغَالِبُونَ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْمَفْرُوضُ.

وَ«أَيْضًا» فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الرِّزْقَ وَالنَّصْرَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا هُدِيَ ثُمَّ أَمَرَ وَهَدَى غَيْرَهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَرُؤْيَتِهِ، فَالْهُدَى التَّامُّ أَعْظَمُ مَا يَحْصُلُ بِهِ الرِّزْقُ وَالنَّصْرُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ جَامِعٌ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ غَيْرَ الْفَاتِحَةِ لَا يَقُومُ مَقَامَهَا وَأَنَّ فَضْلَهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنْ

الْكَلَامِ أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ عَلَى سَائِرِ أَفْعَالِ الْخُضُوعِ، فَإِذَا تَعَيَّنَتْ الْأَفْعَالُ فَهَذَا الْقَوْلُ أَوْلَى وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. اهـ[(١)].

سادسًا: مجاهدة العبد نفسه في ذات الله تعالى:

ومن أعظم أسباب التوفيق إلى الهداية أن يجاهد العبد نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه المجاهدة تكون بتعلم الحق والعمل بمقتضاه والدعوة إليه والصبر على الأذى في سبيل ذلك، فمن أتى بمراتب جهاد النفس هذه هداه الله عَزَّوَجَلَّ سبيله؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال الشيخ عطية سالم نقلًا عن ابن كثير، وزاد بعد أن ساق نصوص القرآن في الهداية وأسبابها في نهاية هذا السياق للآية السابقة:

قال ابن كثير: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾، يعني: الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ أي: لنُبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

وأعتقد أن جهادهم في الله يعم كل اجتهاد، والهداية إلى سبل الله تعم كل سبيل؛ فمن جاهد في طلب العلم فتح الله عليه وهداه سبل تحصيله، ومن جاهد في طاعة الله وفقه الله للعمل بما علم، وعلمه ما لم يكن يعلم، وألهمه الله من عنده كما في قصة الذي قرأ الفاتحة على سيد الحي الذي لدغه العقرب فشفي في الحال، فسأله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**»[(٢)]، قَالَ: قُلْتُ: أُلْقِيَ فِي رَوْعِي، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ**

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٣، ١٤/ ٢٧، ٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢١٥٦)، ومسلم (٢٢٠١).

يرى بنورِ اللهِ»[١]، وحديث: «**ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...**»[٢] إلى آخره، ومن جاهد العدو لتكون كلمة الله هي العليا سواء بلسانه أو بسنانه -بكلمة يقولها أو يكتبها- فإن الله يهديه سبل النصرة:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مشعر ومؤكد بأن العبرة في ميادين الجهاد كلها إنما هي بالإحسان؛ لأن الإحسان غاية مراقبة الله ودوام ذكره وطلب مرضاته، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبد الله كأنك تراه...**»[٣] الحديث. اهـ[٤].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرضُ الجهادِ: جهادُ النفس، وجهاد الهوى، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الدنيا؛ فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبلَ رضاهُ الموصلة الى جنَّته، ومن ترك الجهاد فاته من الهُدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص.

ولا يتمكَّنُ من جهاد عدوِّه في الظاهرِ إلاَّ من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدُوِّه، ومن نُصِرَت عليه نُصِرَ عليه عدُوُّهُ. اهـ[٥].

---

(١) **ضعيف**: رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٨١)، والخطيب في «التاريخ» (٧/ ٢٤٢)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٥٤)، والترمذي (٤/ ١٣٢) وقال: «حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن جرير في «التفسير» (١٤/ ٣١)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٢١).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢)، والبيهقي (٣/ ٣٤٦، ١٠/ ٢١٩) وفي «الزهد» (٦٩٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٤٨).

(٣) رواه مسلم (٨)، والطيالسي (٢)، وأحمد (١/ ٢٧)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٦)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (٦٣)، والترمذي (٢٦١٠).

(٤) «آيات الهداية والاستقامة» (١/ ٧٨).

(٥) «الفوائد» (ص٦٩).

يقول العلامة عطية سالم: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ يعم كل جهاد قصد به وجه الله، سواء كان قمة الجهاد؛ وهو جهاد الأعداء بالسلاح، أو كان دون ذلك مسئولية ومشقة؛ كالجهاد بالقلم وإقامة الحجة، كما فعل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بادئ الأمر؛ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يجاهد بالحجة والبرهان ومنطوق اللسان.

وقد يكون الجهاد اليوم لأهل الأهواء والابتداع، فيبطل ادعاءاتهم ويظهر بطلان أهواءهم، وأعظم ميدان لذلك هو ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وقد جعله الله تعالى قسيم الجهاد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، وقد خص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب العلم في مسجده الشريف بمعادلته بالغزو في سبيل الله، وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من راح إلى مسجدي هذا إلى علم يعلمه أو علم يتعلمه كان كمن غزا في سبيل الله...**» الحديث.

وقد يكون الجهاد جهاد النفس لإلزامها بما يرضي الله، وأعتقد أن هذا النوع هو أصل ومنطلق كل جهاد سواء أكان جهادًا دينيًّا أو حتى دنيويًّا؛ لأن كل عمل عظيم يحتاج إلى بذل الجهد، وفي بذل الجهد مشقة على النفس...» إلى أن قال: «وأعتقد أن كل إنسان لابد باذلًا جهدًا دنيويًّا على اختلاف درجاتهم ومراتبهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ [الانشقاق] يعني: نتيجة عمله، وعليه فليكن جهاد العاقل المسلم المؤمن بلقاء الله جهادًا في ذات الله تعالى، وفي سبيل مرضاته، وعلى وفق شرعه وهدايته ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت:٦٩] أيًا كان نوع الجهاد وكيف كانت غايته، فما دام في ذات الله وعلى وفق ما شرع الله دنيويًّا كان أو دينيًّا فإن الغاية النهائية واحدة ألا وهي الوصول إلى ما

يرضي الله تعالى، وحيثما كان الجهاد في ذات الله وعلى منهج شرع الله؛ فإن الله قد تعهد في هذا الوعد الأكيد، وهذا الخبر الصادق بالهداية بيانًا وإرشادًا، ودلالة وإعانة وسدادًا وتوفيقًا يهديه السبيل ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. اهـ[(١)].

سابعًا: امتثال ما أمر الله به ورسوله واجتناب ما نهى عنه:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عني بذلك جل ثناؤه: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم، لإيتائنا إياهم على فعلهم ما وعِظُوا به من طاعتنا والانتهاء إلى أمرنا ﴿أَجْرًا﴾ يعني: جزاءًا وثوابًا عظيمًا وأشد تثبيتًا لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم، لهدايتنا إياهم صراطًا مستقيمًا يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وذلك الإسلام، ومعنى قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ولوفقناهم للصراط المستقيم. اهـ[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه لكان خيرًا لهم أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قال السدي: أي: وأشد تصديقًا ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا أجرًا عظيمًا يعني: الجنة، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة. اهـ[(٣)].

---

(١) «الهداية والاستقامة» (٢/ ١٢، ١٣، ١٤).
(٢) «تفسير الطبري».
(٣) «تفسير ابن كثير».

وإذا كانت الذنوب سبب لسوء الخاتمة، وللطبع على القلب كان تركها سببًا للهداية، وأشد في الثبات على دين الله؛ فالمحافظة على الصلاة مثلًا وإقامتها كما أمر الله مما أمر به المسلم، ثم هي سبب في الابتعاد عن الفواحش والمنكرات.

يقول العلامة السعدي: ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

أحدها: الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر.

وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

الثالث: قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الرابع: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص الهداية إلى الصراط المستقيم من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك؛ فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير. اهـ[١].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وبها يستعين العبد على الصبر على ما ينوبه في الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

قال ابن كثير: إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، وبها يستعين العبد على الشدائد ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وبها يستعين بالصبر على المصائب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج]، والأعمال الصالحة عمومًا مما يُقرِّب إلى علّام الغيوب.

ولما ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جملة من أنبيائه ورسله، قال لنبيِّه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال -جلّ ذكره- في وصف كتابه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦][٢].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص١٦٤، ١٦٥).

(٢) «تفسير ابن كثير».

ثامنًا: الإنصاف والعـدل:

ومن أهم أسباب الهداية وقبول الحق الإنصاف ولو من نفس العبد والعدل مع القريب والبعيد والموافق والمخالف وإن كان عزيزًا؛ فإن العبد مطالب شرعًا به؛ قال مالك: «ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف»، ولقد شكى العلماء قلته؛ قال القرطبي: هذا في زمن مالك، فكيف في زماننا اليوم الذي عم فيه الفساد وكثر فيه الطغام، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراسة؛ بل للظهور في الدنيا، وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى. اهـ[(١)].

الإنصاف اصطلاحًا:

قال المناوي: الإنصاف: هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله. اهـ[(٢)].

الإنصاف أيضًا: أن تعطي غيرك من الحق مثل الذي تحب أن تأخذه منه لو كنت مكانه، ويكون ذلك بالأقوال والأفعال في الرضا والغضب مع من نحب ومع من نكره.

وقال ابن القيم في «الإنصاف»: أن تكتال لمنازعك بالصاع الذي تكتال به لنفسك؛ فإن في كل شيء وفاءًا وتطفيفًا.

بين الإنصاف والعـدل:

قال المناوي: الإنصاف والعدل توأمان نتيجتهما علو الهمة وبراءة الذمة باكتساب الفضائل وتجنب الرذائل. اهـ[(٣)].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٨٦).
(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص٦٤).
(٣) «التوقيف» للمناوي (ص٦٤).

ولقد أتت أدلة القرآن والسنة تأمر بالعدل والإنصاف، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨].

يقول العلامة السعدي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨]. أي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بما أُمِرُوا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة.

وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾، أي: لا يحملنكم بغض ﴿ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له ولو كان كافرًا أو مبتدعًا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق؛ لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله؛ فإن هذا ظلم للحق.

﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاءًا عاجلًا وآجلًا. اهـ[١].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٠٣).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(١)] «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[(٢)].

وروى البخاري عن عمار: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ الْإِقْتَارِ»[(٣)].

قال ابن حزم: من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وجه تعسفه. اهـ[(٤)].

أنواع الإنصاف:

أولًا: إنصاف المرء نفسه من نفسه:

إذ كيف ينصف الناس من لا ينصف نفسه؟!

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إنصاف المرء نفسه من نفسه، بألا يدَّعي لها ما ليس لها، ولا يُخبِّثها بتدنِيسه لها، وتصغيرِهِ إياها، وتحقيرها بمعاصي اللهَّ عَزَّوَجَلَّ، بل يُنمِّيها ويكبِّرُها ويرفعُها بطاعة اللهَّ وتوحيده، وحبِّه وخوفِهِ ورجائِهِ، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثارَ مرضاتِهِ على مراضي الخلق. اهـ[(٥)].

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥، ٧١، ٧٢).
(٢) رواه مسلم (١٨٤٤)، وأحمد (٢/ ١٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٦)، والنسائي (٧/ ١٥٢)، وابن حبان (٥٩٦١).
(٣) روى البخاري في صحيحه معلقًا في كتاب الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام (١/ ٨٢)، وهو موقوف من كلام عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) «الأخلاق والسير» (ص٨٠).
(٥) «زاد المعاد» باختصار وتصرف (٢/ ٤٠٨).

ثانيًا: إنصاف الله عَزَّوَجَلَّ:

قال ابن القيم: طوبى لمن أنصف ربّه فأقرَّ له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته؛ فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله.

وإن عمل حسنة رآها من مِنَّته وصدقته عليه، فإن قَبِلَها فمِنَّة وصدقة ثانية، وإن ردَّها فلكون مثلها لا يصلح أن يُواجه به.

وإن عمل سيّئة رآها من تخلّيه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذلك عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربّه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه.

ونكتة المسألة وسرُّها أنه لا يرى ربه إلا محسنًا، ولا يرى نفسه إلا مسيئًا أو مفرِّطًا أو مقصِّرًا، فيرى كل ما يسرُّه من فضل ربه عليه، وإحسانه إليه، وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه، ومن الإنصاف في حق المولى عَزَّوَجَلَّ الإنصاف في معاملته. اهـ[(١)].

ثالثًا: إنصاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وذلك بالقيام بحقوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان به ومحبته، وتقديمها على محبة الخلق كلهم، وطاعته وتوقيره وتبجيله، وتقديم أمره وقوله على أمر غيره وقوله.

ومن الظلم العظيم: أن يخل العبد بشيء من حقوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأرحم بهم وأرأف بهم من كل أحد من الخلق، وهو الذي لم يصل إلى أحد خير إلا على يديه. اهـ[(٢)].

---

(١) «الفوائد» (ص٤٠٩).

(٢) «الإنصاف» لأبي الحسن ساعد بن عمر بن غازي (ص٢٤).

رابعًا: إنصاف العباد:

يُقصد بإنصاف العباد أن يقوم المسلم بإنصاف الغير من نفسه أو ممن يحب، حتى لو كان هذا الغير مخالفًا له في الرأي، أو في الدين، أو في المذهب، أو غير ذلك مما يقتضي التحامل، أو يكون مظنة للجور، ومن إنصاف الناس، كما يقول ابن القيم: أن تؤدي حقوقهم وألا تطالبهم بما ليس لك، وألا تحمِّلهم فوق وسعهم، وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تُعْفِيهم مما تحب أن يعفوك منه، وأن تحكم لهم أو عليهم بما تحكم به لنفسك أو عليها. اهـ[1].

نماذج مضيئة في الإنصاف:

إنصاف أمهات المؤمنين:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي فِي مِرْطِي، فَأَذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ -وَأَنَا سَاكِتَةٌ- قَالَتْ: فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟**»، فَقَالَتْ: بَلَى، قَالَ: «**فَأَحِبِّي هَذِهِ**»، قَالَتْ: فَقَامَتْ فَاطِمَةُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَجَعَتْ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ بِالَّذِي قَالَتْ وَبِالَّذِي قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَ لَهَا: مَا نُرَاكِ أَغْنَيْتِ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ، فَارْجِعِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُولِي لَهُ: إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنْشُدْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَاللهِ لَا أُكَلِّمُهُ فِيهَا أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ

(١) «زاد المعاد» بتصرف (٢/ ٤٠٧).

عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى للهِ وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ، وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ».

جاء في حديث الإفك قول عائشة رضي الله عنها: «وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «**يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟**»، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلَّا خيرًا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله، فعصمها الله بالورع»[١].

إنصاف عبدالله بن سلام:

رواه البخاري في إسلام عبدالله بن سلام رضي الله عنه، فقد كان حبرًا من فطاحل علماء اليهود، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة في بني النجار جاءه مستعجلًا وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني به جبريل آنفًا، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: أما أول أشراط الساعة: فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: يا رسولَ اللهِ، إن اليهود قوم بُهْت، فاسألهم عنِّي قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود،

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢١٩)، ومسلم (٨/ ١١٢)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، وأبو داود (٤٧٣٥).

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟!**»، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟!**» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وتنقصوه، قال: هذا كنتُ أخاف يا رسولَ الله»[(١)].

إنصاف عمرو بن العاص للروم:

روى مسلم، عن المستورد بن شداد القرشي، أنه حدث عن عمرو بن العاص فقال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**»، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[(٢)].

إنصاف عبدالله بن رواحة وعدله مع اليهود:

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله بن رواحة إلى خيبر ليخرص لهم الثمار فأرادوا أن يرشوه، فقال عبد الله: «يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ وكذبتم على الله، وليس يحملني بغض إياكم أن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض» اهـ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٣٨).

(٢) رواه مسلم (٧٤٦١).

(٣) «التمهيد» (٩/ ١٤٠).

إنصاف أهل السنة والجماعة للمبتدعة:

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل من كان مؤمنًا بما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو خير من كل من كفر به؛ وإن كان في المؤمن بذلك نوع من البدعة سواء كانت بدعة الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية أو غيرهم؛ فإن اليهود والنصارى كفار كفرًا معلومًا بالاضطرار من دين الإسلام، والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا مخالف له لم يكن كافرًا به؛ ولو قدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ[(١)].

وقال فيمن خالفوه وكفروه من أهل البدع: هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه وإنْ تعدّى حدود الله في بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لا أتعدى حدود الله فيه؛ بل أضبط ما أقوله وأفعله، وأزنه بميزان العدل وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدىً للناس حاكمًا فيما اختلفوا فيه. إلى أن قال: وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. اهـ[(٢)].

وأما ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تحدث عن الصوفية وشطحاتهم قال فيما قال: هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس: إحداهما حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقًا، وهذا عدوان وإسراف.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٤٥، ٢٤٦).

فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها. اهـ[(١)].

تاسعًا: استفراغ الجهد في طلب الحق:

ومن أعظم الأسباب الموصلة إلى الهداية وإدراك الحق: بذل الوسع في طلبه مع صدق العزم في تحصيله والوصول إليه؛ قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [المائدة:١٦].

قال العلامة السعدي: ﴿ يَهْدِى بِهِ ﴾ من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسنا ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالًا وتفصيلًا. اهـ[(٢)].

فالله عَزَّوَجَلَّ كريم، ومن كرمه تعالى ألا يحرم عبده الذي طلب الهداية بصدق منها؛ فإنه تعالى لا يخيب قاصده؛ فإذا صدق العبد ربه وأخذ بالأسباب الموصلة إلى الحق والهداية وبذل الوسع في ذلك صدقه ربه عَزَّوَجَلَّ ووفقه ومنَّ عليه بها؛ إذ الجزاء من جنس العمل.

لقد حفل قديمه وحديثه بنماذج رائعة من المهتدين الذين ارتفعت همتهم في البحث عن الدين الحق، وبذلوا في سبيل ذلك النفس والنفيس، فصاروا مضرب الأمثال، وحجة لله على خلقه أن من انطلق باحثًا عن الحق مخلصًا لله تعالى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يهديه إليه، ويَمُن عليه بأعظم نعمة؛ ألا وهي الهداية. اهـ[(٣)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٠، ٤١).
(٢) تفسير السعدي (٢٢٦).
(٣) «علو الهمة» (ص٣٣٣) ط. دار الخلفاء الراشدين.

ومن هذه النماذج قصة سيدنا سلمان الفارسي:

«المكان: شجرة ملتفة وارفة الظلال، تجثم أمام دارٍ متواضعة بـ«المدائن»، يجلس تحت ظلها صاحب الدار -شيخ كبير تعلوه الهيبة، ويزينه الوقار- قد أحاط به جلساؤه الأخيار، ينصتون لحديثه الشيق، وقصته الرائعة ورحلته المباركة في البحث عن الحقيقة.

ها هو ذا يروي لهم كيف غادر دين قومه الفرس إلى النصرانية، ثم إلى الإسلام، وكيف ضحَّى في سبيل «الحقيقة الكبرى» بثراء أبيه الباذخ، ورمى نفسه في أحضان الفاقة، بحثًا عن خلاص عقله وروحه.

إنه يروي لهم، كيف بيع في سوق الرقيق، وهو في طريق بحثه عن الحقيقة؛ يقول سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنتُ رجلًا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها: «جي».. وكان أبي دهقان[١] أرضه، وكنت من أحَبِّ عباد اللهِ إليه.. وقد اجتهدتُ في المجوسية، حتى كنت قاطن[٢] النار التي نوقدها، ولا نتركها تخبو.. وكان لأبي ضَيْعة، أرسلني إليها يومًا، فخرجت، فمررت بكنسية للنصارى، فسمعتهم يصلون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم، وقلت لنفسي: «هذا خير من ديننا الذي نحن عليه» فما برحتهم حتى غابت الشمس ولا ذهبت إلى ضيعة أبي ولا رجعت إليه، حتى بعث في أثري.. وسألت النصارى حين أعجبني أمرهم وصلاتهم عن أصل دينهم، فقالوا: في الشام.. وقلت لأبي حين عدت إليه: «إني مررت على قوم يصلون في كنيسة لهم فأعجبتني صلاتهم، ورأيت أن دينهم خير من ديننا»... فحاورني، وحاورته... ثم جعل في رجلي حديدًا، وحبسني... وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أني دخلت دينهم،

(١) **الدَّهقان:** رئيس القرية، ورئيس الإقليم.

(٢) **قاطن النار:** القيم على نارِ المجوس ومُوقِدُها.

وسألتهم إذا قدم عليهم ركْبٌ من الشام أن يخبروني قبل عودتهم إليها لأرحل إلى الشام معهم، وقد فعلوا.

فحطمتُ الحديدَ، وخرجت، وانطلقتُ معهم إلى الشام.. وهناك سألت عن عالِمهم، فقيل لي: «هو الأسقف، صاحب الكنيسة»، فأتيته، وأخبرته خبري، فأقمت معه أخدم، وأصلي، وأتعلم.. وكان هذا الأسقف رجل سوء فِي دينه؛ إذ كان يجمع الصدقات من الناس ليوزعها، ثم يكتنزها لنفسه.. ثم مات.. وجاءوا بآخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلًا على دينهم خيرًا منه، ولا أعظم رغبة في الآخرة، وزهدًا في الدنيا، ودأبًا على العبادة.. وأحببته حبًّا ما علمت أنني أحببت أحدًا مثله قبله، فلما حضره قَدَرُه، قلت له: «إنه قد حضرك من أمر اللهِ ما ترى، فَبِمَ تأمرني؟ وإلى من توصي بي؟».

قال: «أي بُنَي، ما أعرف أحدًا من الناس على مثلِ ما أنا عليه إلا رجلًا بالموصل.. «فلما توفي، أتيت صاحب الموصل، فأخبرته الخبر، وأقمت معه ما شاء الله أن أقيم، ثم حضرته الوفاة، فسألته، فدلني على عابد في «نصيبين».. «فأتيته، وأخبرته خبري، ثم أقمت معه ما شاء الله أن أقيم، فلما حضرته الوفاة سألته، فأمرني أن ألحق برجل في عمورية من بلاد الروم، فرحلت إليه، وأقمت معه... واصطنعت لمعاشي بقرات وغنيمات».. ثم حضرته الوفاة.. فقلت له: «إلى من توصي بي؟»، فقال لي: «يا بني! ما أعرف أحدًا على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظَلَّكَ زمانُ نبيٍّ يُبْعَث بدين إبراهيم حنيفًا.. يُهاجرُ إلى أرضِ ذاتِ نخل بين حَرَّتين؛ فإن استطعت أن تخلص إليه فافعل، وإن له آيات لا تخفى: فهو لا يأكل الصدقة... ويقبل الهدية.. وإن بين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته».

ومر بي ركب -ذات يوم- فسألتهم عن بلادهم، فعلمت أنهم من جزيرة العرب، فقلت لهم: «أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني معكم إلى أرضكم؟».. قالوا: «نعم...».

واصطحبوني معهم حتى قدموا بي -وادي القرى- وهناك ظلموني، وباعوني إلى رجل من يهود.. وبصرت بنخل كثير، فطمعت أن تكون هي البلدة التي وُصِفت لي، والتي ستكون مُهاجَرَ النبي المنتظر... ولكنها لم تكُنْها، وأقمت عند الرجل الذي اشتراني، حتى قَدمَ عليه يومًا رجلٌ من يهودِ بني قريظة، فابتاعني منه، ثم خرج بي حتى قدمت المدينة!! فوالله ما هو إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلد التي وُصِفت لي.. وأقمت معه أعمل له في نخله في بنى قريظة، حتى بعث الله رسوله، وحتى قدم «المدينة» ونزل بِقُبَاء في بنى عمرو بن عوف.

وإني لفي رأس نخلة يومًا، وصاحبي جالس تحتها، إذ أقبل رجل من يهود، من بني عمه، فقال يخاطبه: «قاتل الله بني قيلة؛ إنهم ليتقاصفون(١) على رجل بقباء، قادمٍ من مكة يزعمون أنه نبى..».

فو اللهِ ما هو إلا أن قالها حتى أخذتني العُرَوَاء(٢)، فرجفت النخلة حتى كدت أسقط فوق صاحبي!! ثم نزلت سريعًا، أقول: «ماذا تقول...؟ ما الخبر...؟».

فرفع سيدى يده ولكزني لكزة شديدة، ثم قال: «مالك ولهذا..؟ أقبل على عملك».. فأقبلت على عملي.. ولما أمسيت جمعت ما كان عندي، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقباء.. فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه، فقلت له: «إنكم أهل حاجة

---

(١) **يتقاصفون**: يتتابعون، ويجتمعون، ويتزاحمون.

(٢) **العُرَواء**: بَرد الحمى أولَ مسِّها.

وغربة، وقد كان عندي طعام نذرته للصدقة، فلما ذُكِرَ لي مكانكم، رأيتُكم أحق الناس به، فجئتكم به..». ثم وضعته، فقال الرسولُ لأصحابه: «**كلوا باسم اللهِ**».. وأمسك هو فلم يبسط إليه يدًا... فقلت في نفسي: «هذه واللهِ، واحدة... إنه لا يأكل الصدقة»..!! ثم رجعت، وعدت إلى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ في الغداة، أحمل طعامًا، وقلت له عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إني رأيتك لا تأكل الصدقة.. وقد كان عندي شيء أحِبُّ أن أكرمك به هدية»؛ ووضعته بين يديه، فقال لأصحابه: «**كلوا باسم اللهِ...**»، وأكل معهم.. قلتُ لنفسي: «هذه واللهِ الثانية.. إنه يأكل الهدية»..!! ثم رجعت فمكثت ما شاء الله، ثم أتيته، فوجدته في البقيع قد تبع جنازة، وحوله أصحابه، وعليه شملتان مؤتزرًا بواحدة، مرتديًا الأخرى، فسلمت عليه، ثم عدلت لأنظرَ أعْلَى ظهرهِ، فعرف أني أريد ذلك، فألقى بُرْدَته عن كاهله، فإذا العلامةُ بين كتفيه.. خاتم النبوة، كما وصفه لي صاحبي.. فأكببت عليه أقبله وأبكي.. ثم دعاني عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فجلست بين يديه، وحدثته حديثي كما أحدثكم الآن.

ثم أسلمت.. وحال الرِّقُّ بيني وبين شهود بدر وأُحُد.. وفي ذات يوم قال الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كاتِبْ**[١] **سيِّدك حتى يُعْتِقك**»، فكاتبته، «وأمر الرسول الصحابة كي يعاونوني، وحرر الله رقبتي، وعشت حُرًّا مسلمًا، وشهدت مع رسول اللهِ غزوة الخندق، والمشاهد كلها[٢]»..

بهذه الكلمات الوِضاء العِذاب.. تحدث «سلمان الفارسي» عن رِحلتِهِ الزكية النبيلة العظيمة في سبيل بحثه عن الحقيقة العظمى التي تصله باللهِ، وترسم له دوره في

---

(١) كاتَبَ السيدُ العبدَ: كتب بينه وبينه اتفاقًا على مال يُقسطه له، فإذا ما دفعه صار حُرًّا، فالسيد مُكاتِب، والعبد مكاتَب.

(٢) باختصار وتصرف يسير، وقد رواه الطبراني، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، ومن ثَم حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٩٢).

الحياة.. فأيُّ إنسان شامخ كان هذا الانسان...؟ أي تفوق عظيم أحرزته روحه الطُّلَعَة، وفرضته إرادته الغَلَّابة على المصاعب فقهرتها، وعلى المستحيل فجعلته ذلولًا...؟ أي تَبَتُّل للحقيقة؟ وأي ولاء لها هذا الذي أخرج صاحبه طائعًا مختارًا من ضِيَاع أبيه وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه، ومَشَاقِّه، ينتقل من أرض إلى أرض... ومن بلد إلى بلد... ناصبًا، كادحًا عابدًا... تفحص بصيرتُه الناقدة الناسَ، والمذاهبَ، والحياة... ويظل في إصراره العظيم وراء الحق، وتضحياته النبيلة من أجل الهدى حتى يباع رقيقًا... ثم يثيبه الله ثوابه الأوفى، فيجمعه بالحقِّ، ويلاقيه برسوله، ثم يُعطيه من طولِ العمر ما يشهد معه بكلتا عينيه رايات الله تخفق في كل مكان من الأرض، وعباده المسلمين يملؤون أركانها وأنحاءها هدىً ورحمةً، وعدلًا....»[1].

ومن هذه النماذج:

قصة إسلام أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«وهذه رواية في حادثةِ إسلام أبي ذر، رواها عنه ابنُ أخيه عبد الله بن الصامت الغفاري، وقد رواها مسلم أيضًا من طريق عبد الله بن الصامت الغفاري ابن أخي أبي ذر، وملخَّصُها: قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غِفار، وكانوا يُحِلون الشهر الحرام، فخرجتُ أنا وأخي أُنَيْس وأُمُّنا، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرةِ مكة.

فقال أُنَيس: إنَّ لي حاجة بمكة فاكفِني، فانطلق أُنيَس حتى أتى مكة فراثَ عليَّ -أي: أبطأ-، ثم جاء، فقلتُ: «ما صنعتَ؟»، قال: «لقيتُ رجلًا بمكة يزعم أنَّ الله أرسله»، قلت: «فما يقولُ الناسُ؟»، قال: «يقولون: شاعر كاهن ساحر»، -وكان أُنيَس أحَدَ الشعراء- قال أُنَيس: «لقد سمعتُ قولَ الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وَضَعْتُ قوله على أقراءِ الشعر -أي: طرقِه- فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون».

---

(١) «علو الهمة» للشيخ محمد إسماعيل المقدم (ص٣٣٣: ٣٣٧).

قال أبو ذر: «قلت: فأكفِني حتى أذهب فأنظر»، قال: «فأتيت مكة، فتضَعّفْتُ رجلًا منهم» -يعني: نظرتُ إلى أضعفهم فسألته؛ لأن الضعيف يكون مأمون الغائلة غالبًا -فقلتُ له: «أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟» فأشار إليَّ، فقال: «الصابئ!»، فمالَ عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرة وعَظْم، حتى خررتُ مغشيًّا علي، فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمر -يعني: من كثرة الدماء التي سالت منه، صار كالنُّصُب وهو الحَجَرُ الذي كان أهلُ الجاهلية ينصبونه ويذبحون عنده فيَحمَرُّ بالدم....

قال: فأتيتُ زمزم فغَسلتُ عني الدماء، وشَربتُ من مائها، ولقد لبَثتُ يا ابن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم، ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم، فسَمِنتُ حتى تكسّرَت عُكَنُ بطني، وما وجدتُ على كبدي سُخْفَةَ جُوع -يعني أثَرَ الجوع وضَعْفَه-.

قال: «فبينا أهلُ مكة في ليلةٍ قمراء إذ ضُرِب على أسمختهم -أي: آذانهم بالنوم- فما يطوف بالبيت أحد، وجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر، حتى استَلَم الحَجَر، وطاف بالبيت هو وصاحبُه، ثم صلّى، فلما قضَى صلاته قلتُ: السلامُ عليك يا رسول الله»، فقال: «**وعليك ورحمة الله**».

ثم قال: «**مَنْ أنت؟**» قلت: «من غِفار»، قال: «فأهوى بيده، فوضَعَ أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كرِهَ أن انتميتُ إلى غِفار، فذهبتُ آخُذُ بيده، فَقَدَعَني -أي: كَفّني- صاحبُه وكان أعلمَ به مني -يعني: فعَلَ هذا لدفع السوء عني وعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم رفع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسَه ثم قال: «**متى كنتَ ها هنا؟**» قال: قلتُ: «قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم»، قال: «**فمن كان يُطعمك؟**»، قال: قلت: «ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم، فَسَمِنْتُ حتى تكسّرَتْ عُكَنُ بطني، وما أجدُ على

كبِدي سُخفَةَ جوع»، قال: «**إنها مباركة؛ إنها طَعامُ طُعْم**» -أي: هي تُشبع شاربَها كما يُشبعه الطعام-.

فقال أبو بكر: «يا رسول الله! ائذن لي في طعامه الليلة»، فانطلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وانطلقتُ معهما، ففتح أبو بكر بابًا فجعل يَقبض لنا من زَبيب الطائف، وكان ذلك أوَّلَ طعام أكلتُه بمكة» الحديث(١)(٢).

عاشرًا: الاستجابة للحق إذا تبين وإيثاره على كل شيء:

ومن أسباب الهداية والتوفيق لها: أن يستجيب المرء للحق إذا تبين له، وأن يؤثره على كل شيء؛ إذ الواجب أن يكون الحق أحب للمرء من سائر حظوظه الدنيوية، ولم لا وفي الحق -علمًا وعملًا- رضا الرب والفوز بنعيمه ورضوانه، والنجاة من عذابه وعقابه؟! ولله در الإمام ابن القيم إذ يقول في «المدارج» عن أبي إسماعيل الهروي صاحب «المنازل» حينما قال: الرجاء أضعف منازل المريدين، فقال ابن القيم: «شيخ الإسلام -أي: الهروي- حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبين ما فيه. اهـ(٣).

ومن أعظم النماذج التي تذكر في هذا الباب -أعني: سرعة الاستجابة للحق إذا تبين لهم- أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس من السحر في شيء، بل هو آية من آيات الله، فاستجابوا من توِّهم وآمنوا بربهم ولم يعبأوا بتهديد فرعون ووعيده، وأنه حينما قال لهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١]، قالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، فكانوا في الصباح سحرة فجرة، وفي المساء شهداء بررة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) «علو الهمة» للشيخ محمد إسماعيل المقدم (ص٣٣٩-٣٤٠).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨).

وقد ذكر الله قصتهم في غير موضع من كتاب الله، ونحن نذكر ما ورد في ذلك في (سورة الأعراف) مع «تفسير السعدي» لها: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ [الأعراف:١٠٩] حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: ماهر في سحره.

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه يُرِيدُ موسى بفعله هذا ﴿ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾، أي: يريد أن يجليكم عن أوطانكم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٠] أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره -بزعمهم- عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس.

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الأعراف:١١١] أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث ﴿ فِي ٱلْمَدَآئِنِ ﴾ أناسًا يحشرون أهل المملكة، ويأتون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٧]، أي: يجيئون بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه]، وقال هنا: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ [الأعراف: ١١٣] طالبين منه الجزاء إن غلبوا فـ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾، فـ﴿ قَالَ ﴾ فرعون: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾، فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿ قَالُواْ ﴾ على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾، فـ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿أَلْقُواْ ﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى، ﴿ فَلَمَّآ

﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ ﴿حِبالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾، إذا هي ﴿مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ كأنها حيات تسعى، فـ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ﴾ حية تسعى، فـ﴿تَلۡقَفُ﴾ جميع ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾، أي: يكذبون به ويموهون ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك المقام ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾، أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

فقَالَ لَهُمۡ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ مهددًا لهم على الإيمان: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾؟!

كان الخبيث حاكمًا مستبدًّا على الأديان والأقوال؛ قد تقرر عنده وعندهم، أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه.

وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، وقال هنا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عليَّ، ثم موه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٌ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾، أي: إن موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ

﴿ٱلسِّحۡرَ﴾ فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له، فيظهر، فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا وتبين لهم الحق فاتبعوه، ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾، زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ في جذوع النخل لتختزوا بزعمه ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كل سيذوق هذا العذاب.

فقال السحرة -الذين آمنوا- لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب، إِلَّا أَنْ ﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾، فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه ويستحق صاحبه العقوبة فهو ذنبنا، ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ﴾، أي: أفض ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾، أي: عظيمًا كما يدل عليه التنكير؛ لأن هذه محنة عظيمة تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير ليثبت الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانه ويزول عنه الانزعاج الكثير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾، أي: منقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان. اهـ[١].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧٩- ٢٨٠).



المبحث الرابع

في موانع الهداية

من الموانع الصارفة عن الهداية:

أولًا: الجهل.

ثانيًا: اتباع الهوى.

ثالثًا: الحسد.

رابعًا: الكبر.

خامسًا: حب الرياسة (وهو من أعظم موانع الهداية).

سادسًا: الذنوب والمعاصي.

المبحث الرابع



في موانع الهداية

يحرم العبد من الهداية بما كسبت يداه من البداية:

ذكرنا أن الله عَزَّوَجَلَّ يضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا، فالله عَزَّوَجَلَّ أعلم بمحال فضله ومحال عدله ولا يظلم الناس شيئًا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وإليك الأدلة التي تبين أنه ما حرم الهداية أحد إلا بما كسبت يداه، واتبع هواه.

«قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ [القصص:٥٠] فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم؛ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟!! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الذين صار الظلم لهم وصفًا والعناد لهم نعتًا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى» اهـ[١].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤]، وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًّا؛ فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة؛ حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله، فالذي وصفه السرف والكذب لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨][٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤] هذا هو المقسم عليه، أي: إن سعيكم -أيها المكلفون- لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي فيبقى السعي له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف.

ولهذا فصَّل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، أي: ما أمر به من العبادات المالية؛ كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية؛ كالصلاة، والصوم ونحوهما.

(١) «تفسير السعدي» (ص٥٩٣).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٧١٠).

والمركّبة منها؛ كالحج والعمرة ونحوهما.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: صدق بـ«لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية» اهـ[(١)].

ولهذا قال: عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى؛ لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم، لا لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم؛ فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٧٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾. اهـ[١].

يقول العلامة الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ الآية [البقرة:٧]، هذه الآية تدل بظاهرها على أنهم مجبورون؛ لأن من ختم على قلبه وجعلت الغشاوة على بصره سلبت منه القدرة على الإيمان، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم كقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، وكقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [البقرة:١٧٥]، وكقوله: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الآية [الكهف:٢٩]، وكقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الآية [آل عمران:١٨٢]، وكقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ الآية [المائدة:٨٠].

والجواب: أن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، كل ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم فعاقبهم الله بعدم التوفيق جزاءًا وفاقًا كما بينه الله تعالى بقوله: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء:١٥٥]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون:٣]. وبقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]، وقوله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]. اهـ[٢].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٨١٩).

(٢) «دفع الإيهام والاضطراب عن آيات الكتاب» (ص٩-١٠).

وها نحن نذكر بعض موانع الهداية بشيء من التفصيل:

ومن الموانع الصارفة عن الهداية:

أولًا: الجهـــل:

إذا كان العلم النافع من أعظم أسباب الهداية وقبول الحق؛ فإن الجهل من أشد الموانع والصوارف عن الهدي والحق؛ فإن المرء عدو ما يجهل، ولذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩]، فما ثم إلا عالم أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي من غير موضع من كتابه، وقد ذم عَزَّوَجَلَّ أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

يقول الإمام ابن القيم: فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلًا منهم، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب؛ فالجهال شر منهم، وليس على دين الرسل أضر من الجهال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه من الجهل: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال كليمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، وقال لأول رسله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، فهذه حال الجاهلين عنده، والأول حال أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابته ومعرفته وفقهه؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء]، وأمر سبحانه نبيه بالإعراض عنهم فقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومتاركتهم كما في قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس؛ فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه. اهـ[(١)].

وإذا كانت كل صفة مدح الله به العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته، فكل ذَمٍّ ذُمَّ العبد به فهو ثمرة الجهل ونتيجته؛ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا الثمار القبيحة لشجرة الجهل: أما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل.

ولهذا قيل في حد البخل: جهل مقرون بسوء الظن، ومن ثمرته: الغش للخلق والكبر عليهم، والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب واخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجاؤه والتوكل عليه، وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتهاوت عند حق الله والوثوق بها عند حق نفسه، والغضب لها والانتصار لها؛ فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٧٠، ٧١).

حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها: الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار، وركوب مركب الخزي والعار.

وبالجملة: فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل؛ فلو ظهرت صورة العلم للأبصار؛ لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل؛ لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه، وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل. اهـ(١).

ثانيًا: اتباع الهوى:

من أعظم ما يمنع الهداية ويحول بين العبد وبينها اتباع الهوى؛ فما ركب أحد هواه إلا ضل عن سواء السبيل، وزاغ عن قبول الحق؛ قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص:٥٠].

تعريف الهوى:

قال ابن منظور: الهوى مقصور: هوى النفس، وإذا أضفته إليك قلت: هوايّ، والهوى: العشق يكون في مداخل الخير والشر، والهَويّ والمهوِيّ وهوى النفس: إرادتها، والجمع: أهواء.

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٤٦، ١٤٧).

وقال الراغب: الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهِوي: سقوط من علو إلى سفل.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد بالهوى: ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنى المفعول؛ مثل الخلق بمعنى المخلوق، فهو: ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفع الكامل وشاع الهوى في المرغوب الذميم.

أما معنى الهوى في الاصطلاح:

فالهوى: هو ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشر.

وأما المقصود باتباع الهوى، فيقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد، وعرفه بعضهم بقوله: أنه السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي، أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل أو الرجوع إلى شرع أو تقدير لعاقبة.

أدلة ذم الهوى من الكتاب والسنة وآثار السلف:

من القرآن:

١- التحذير من اتباع أهل الأهواء: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون. اهـ[1].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٧٤٧).

قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف:٢٨].

﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، أي: صار تبعًا لهواه؛ حيث ما اشتهت نفسه فعله وسعى في إدراكه ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ﴾ [الجاثية:٢٣].

﴿ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾، أي: مصالح دينه ودنياه ﴿ فُرُطٗا ﴾، أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إمامًا للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منَّ الله به عليه فحقيق بذلك أن يتبع ويجعل إمامًا. اهـ(١).

قال تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه:١٦]، أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك، من كان كافرًا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعًا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئًا من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله، وكون النفوس مجبولة على التشبه والاقتداء

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٥٢).

بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير من كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها أو نقص شيء منها. اهـ[(١)].

٢- يبين الله عَزَّوَجَلَّ أن من اتبع هواه وأطاعه فقد اتخذ إلهًا؛ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أو يسخطه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه. اهـ[(٢)].

٣- أمر الله أنبيائه باجتناب الهوى في الحكم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٨٠).
(٢) «تفسير السعدي» (ص٧٤٧).

٤- زكى الله نبيه عن اتباع الهوى؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم].

٥- ذم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رجلًا من بني إسرائيل آتاه آياته فانسلخ منها لما اتبع هواه فغوى؛ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

وأما الحديث:

١- قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**»[(١)]. والمعنى: تدخل وتسري تلك الأهواء -أي: البدع- «**كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ**» وهو داء يعرض للإنسان من عض الكلب، وهو داء يصيب الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحد إلا كلب ويعرض له أعراض ردية، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا.

٢- عن أبي الحكم، عن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ: شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الهوى**»[(٢)].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل؛ أما اتباع الهوى: فيصد عن الحق، وأما طول الأمل: فيُنْسي الآخرة».

وقال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد! أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: جهاد هواك»، وقال بشر الحافي: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إيَّاه».

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٦٩٧٩)، وأبو داود (٤٥٩٧)، والطبراني (٨٨٥)، والحاكم (٤٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢)، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٧٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٩٧٨٨)، والبزار (٣٨٤٤)، والطبراني في «الصغير» (٥١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢١٤٣).

يقول العلامة المُعَلِّمِيِّ اليماني مبينًا مسالك الهوى، وكيف تحول دون قبول الحق:

وعلى هذا القياس يكون النظر في الحجج العلمية؛ فالبواعث على الخيانة فيها كثيرة متفاوتة يجمعها كلمة (الهوى) فقد تهوى القول؛ لأن في مقابله مشقة؛ كعدم وجوب الجماعة، أو إخراج مال، كجواز الحيل لإسقاط الزكاة، أو تحصيل مال، كجواز العينة، أو شهوة كاستحلال النبيذ والملاهي، أو موافقة لهوى من تحب، أو مخالفة لهوى من تبغض، كأن يطلق رجل، ثم يندم فيستفتيك، فتهوى عدم الوقوع إن كان صديقك، والوقوع إن كان بغيضك.

وقد تهوى القول؛ لأنك ترى ذهابك إليه وانتصارك له يكسبك جاهًا وقبولًا وشهرة، كأن يكون موافقًا لهوى الأمراء والأغنياء والعامة، وهذا من أصدِّ الأهواء وأهدمها للدين.

وقد تهواه لأنك ترى في ظهور صحته فخرًا لك، وفي ظهور بطلانه غضاضة عليك، فتهوى القول الذي سبق أن قلت به وعرفه الناس، والقول الذي مضى عليه أباؤك أو مشايخك أو إمامك أو أي رجل أو فريق تنسب إليه؛ لأنك ترى أن ما ثبت لمن تنسب إليه من مدح بإصابة، أو نقص بغلط، يسري إليك.

وقد تهوى القول لمناسبة ما بينك وبين قائله؛ كأن تكون حنبليًّا، أو تهوى قول مالك إن كنت مدنيًّا، أو قول أبي حنيفة إن كانت فارسيًّا، أو قول الشافعي إن كنت قرشيًّا، حتى لقد نجد المرأة في عصرنا تميل إلى قول يُروى عن عائشة، وقد تهواه لأن في ظهور صحته نقصًا على من ينافسك من أقرانك ومعاصريك؛ لأنك تحب ظهور نقصهم وظهور فضلك عليهم.

وكذلك تهواه إذا كان في ظهور صحته تخطئة لمن كان ينافس أباك أو شيخك أو إمامك أو أي رجل أو فريق تنسب إليه؛ لأنك ترى أن في ظهور نقص ذاك رجحانًا لمن تنسب إليه يسري إليك، حتى لقد يسمع الحنفي شِعرًا منسوبًا إلى الإمام الشافعي، فيحرص على أن يقدح في فصاحته، وقد تهوى القول لأن فيه فضيلة لك أو لمن تنسب إليه أو توافقه في أمر ما، أو لأن في مقابله نقصًا لمن يخالفك، أو يخالف من تنتسب إليه أو توافقه، فتهوى القول بأن الأعجمي كفء للعربية، إن كنت عجميًّا، ومقابله إن كنت عربيًّا، وتهوى صحة ما روي في فضل العرب، دون ما روي في فضل فارس، إن كنت عربيًّا، وعكسه إن كنت فارسيًّا، وقد بلغ الأمر ببعض الجهلة من العرب والفرس إلى وضع كل من الفريقين أحاديث في فضل قومه وذم الآخرين، وكذلك وضع بعض جهلة أهل الحديث أحاديث في فضل أصحابه وذم أهل الرأي، ووضع بعض جهلة أهل الرأي أحاديث في فضل أبي حنيفة وذم الشافعي، وجرت معارك بين القادرية والرفاعية، كل من الفرقتين تضع القصص والحكايات لإطراء شيخها، وتنقيص الآخر، وقد تهوى القول لأنه يطمعك في النجاة في الآخرة، وإن ساء عملك، كالإرجاء المحض، والغلو في إثبات الشفاعة، وكالميل إلى صحة ما روي من الأحاديث والآثار في الفضائل الخطيرة على الأعمال اليسيرة، وفي نجاة من مات بأحد الحرمين، إن كنت تؤمل ذلك، وفي أن أهل البيت مغفور لهم، إن كنت منهم، وغير ذلك.

ويشتد الهوى جدًّا في الأمور التي نشأ عليها الرجل وألفها وافتخر بها، ومضى عليها آباؤه وأجداده وأحباؤه وشيوخه ومن يقتدي بهم ويرجو النجاة بحبهم وشفاعتهم، إذا قيل له في كثير من تلك الأمور أنها بدع، وأن منها ما هو كفر أو شرك، ذلك أنه يرى أن من لازم صحة ذلك أن يظهر أنه كان مبتدعًا ضالًّا أو كافرًا مشركًا، وأنَّ كثيرًا من آبائه

وأجداده وشيوخه وفقهائه وأقطابه وأوتاده كانوا مبتدعين ضالين أو كفارًا مشركين، وأنهم مخلدون في النار، وأنه إذا تدبر الحجج فتبين له بطلان ما كان عليه هو وأسلافه فرجع إلى الحق، كان رجوعه بدعوة أناس لم يزل يمقتهم ويسفههم هذا وسيأتي الكلام على الأعذار، وفيه ما يهون هذا الأمر، ويعين الناظر على هواه إن شاء الله تعالى.

وقد ينعكس الهوى، فيهوى الإنسان أن ينقض قوله السابق، وأن يخالف أباءه وأجداده، وشيوخه، وأئمته وسائر ما تقدم، يهوى ذلك حرصًا على أن يقال: حر الفكر، بريء من التعصب، وطمعًا أن يُعَدَّ مُجْدِّدًا يؤخذ منه، وإمامًا يُقتدى به، وعلى الأقل يرى أنه إذا خالف الأكابر فقد صار قرنًا لهم، وقد كان أصاغر الشعراء يتعرضون لهجو أكابرهم، كجرير والفرزدق وبشار، كل ذلك ليرتفعوا بذلك، فيقال: إن فلانًا ممن هاجى جريرًا، ولهذا كان الأكابر يترفعون عن إجابة هؤلاء المتعرضين.

وبالجملة فمسالك الهوى كثيرةً، وفيها ما يدق ويغمض، فيخفى على صاحبه، وكثيرًا ما يتفق ذلك لأكابر لا يرتاب في علمهم وفضلهم وورعهم ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

واعلم أن الهوى يتفاوت قوة وضعفًا، ويعارضه المانع الدنيوي، وهو خشية الفضيحة بين الناس، وأن يقال: كثير الغلط، يتشبث بالشبهات الساقطة، ويعرض عن الحجج النيرة، معاند، مكابر، لا يخاف الله تعالى، ونحو ذلك.

فتستعين النفس بالشبهات وهي لا تحصى كثرة، وسيأتي ذكر طائفة منها في باب على حدة، وهي في نفسها متفاوتة في القوة والضعف، ثم يكون الحكم لرقيب الإيمان، فقد يقوى الرقيب على تفاوت، والتوفيق بيد الله.



فلو كانت حجج الحق كما افترضت كلها يقينية لا تشتبه على أحد، لتعذرت الخيانة فيها، وبذلك ينسدُّ أعظمُ باب من أبواب الابتلاء، وهو الابتلاء في العلم والنظر، ثم يَجُرُّ ذلك إلى الخلل في الابتلاء في العمل، وذلك مخالفة لحكمة الخلق، كما تقدم، والله سبحانه أعلم وأحكم[(١)].

فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

منها: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط، إلا وجد في نفسه ذلًا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذلُّ الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

ومنها: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده؛ فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحُكْمِ أخرج صاحبه إلى الظلم وصدَّه عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين، حيث يولِّي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

ومنها: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه؛ فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

---

(١) «أصول ينبغي تقديمها» للعلامة المعلمي (ص٢٦: ٣٠).

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل الهوى مضادًا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين:

١- أتباع الوحي. **٢- وأتباع الهوى.**

وهذا كثير في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة:١٢٠] ونظائره.

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى؛ فشبههم بالكلب تارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وبالحمر تارة؛ كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر]، وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

ومنها: أن متبع الهوى ليس أهلًا أن يطاع، ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته؛ أما عزله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، أي: لا ينال عهدي بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:٢٩].

وأما النهي عن طاعته؛ فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن؛ فقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:٤٣] في موضعين من كتابه؛ قال الحسن: هو المنافق، لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضًا: المنافق عبد هواه، لا يهوى شيئًا إلا فعله.

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين؛ كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد، فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

ومنها: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته؛ قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك: داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه».

ومنها: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه؛ قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك».

وسمعت شيخنا -يعني ابن تيمية- يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم.

ومنها: أن التوحيد واتِّباع الهوى متضادان؛ فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رُسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله تعالى كسر الأصنام المجسّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولًا.. وتأمَّلْ قول الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٢]، كيف تجده مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من

دون الله؛ قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان].

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل القلب ملك الجوارح، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين؛ فالحق والزهد والهدى سلطان وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطان وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين، ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عدة من قبلها وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

ومنها: أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

ومنها: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار، والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه كما قال القائل:

مَـآرِبُ كَـانَـتْ فِي الـشَّـبَـابِ لأَهْلِهَا ... عِـذابًـا فَـصَـارَتْ فِي الْمَشِيبِ عَذَابًا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية؛ لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العزّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس؛ قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته

أعزه الله تعالى في حال كهولته، وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى؛ فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه والنار نهاية من اتبع هواه.

ثالثًا: الحسد:

ومن الأسباب المانعة لقبول الحق والتي تحول بين العبد والهداية: الحسد؛ فهو من أعظم الصوارف عن الهداية.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض ذكره في الأسباب المانعة من قبول الحق: ومن أعظم هذه الأسباب: «الحسد» فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه. اهـ[(١)].

قال ابن القيم أيضًا: وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته والسعي في أذاه بكل ممكن، مع علمه بفضله وعلمه، وأنه لا شيء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله، ولهذا قيل: الحاسد عدو للنعم والمكارم؛ فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله، وإنما حمله على ذلك إفساد قصده وإرادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظنًّا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها، وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة، ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. اهـ[(٢)].

---

(١) «هداية الحيارى» (ص٣١).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٢٢).

وقال القرطبي: الحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض؛ فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل. اهـ[١].

ومعنى الحسد اصطلاحًا كما قال الجرجاني: الحسد: تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد. اهـ[٢].

الفرق بين الحسد والغبطة: قال ابن منظور: الغبط: أن يرى المغبوط في حال حسنة، فيتمنى لنفسه مثل تلك الحال الحسنة من غير أن يتمنى زوالها عنه، وإذا سأل الله مثلها فقد انتهى إلى ما أمره به ورضيه له، وأما الحسد: فهو أن يشتهي أن يكون له ما للمحسود وأن يزول عنه ما هو فيه. اهـ[٣].

وقال الرازي: إذا أنعم الله على أخيك بنعمة فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد، وإن اشتهيت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة. اهـ[٤].

وقد تسمى الغبطة حسدًا كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»**[٥].

وقد فسر النووي الحسد في الحديث فقال: هو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها. اهـ[٦].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥).
(٢) «التعريفات» للجرجاني (ص٨٧).
(٣) «لسان العرب» لابن منظور (٧/ ٣٥٩).
(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (٣/ ٦٤٦).
(٥) رواه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).
(٦) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٦/ ٩٧).

الفرق بين الحسد والمنافسة والمسابقة:

قال ابن القيم: وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه. اهـ[(١)].

وقال الغزالي: والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة، والذي يدلُّ على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، وإنما المسابقة عند خوف الفوت؛ وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كلُّ واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها.[(٢)].

وبيَّن الغزالي سبب المنافسة فأرجعها إلى: إرادة مساواته واللحوق به في النعمة، وليس فيها كراهة النعمة. اهـ[(٣)].

أدلة ذم الحسد في القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

قال الثعالبي: وقيل: «إنَّ هذه الآية تابعةٌ في المعنى لما تقدَّم من نَهْي اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن متابعة أقوال اليهود في: ﴿...رَاعِنَا ...﴾ [البقرة:١٠٤] وغيره، وأنهم لا يودُّون أن ينزل على المؤمنين خيرٌ، ويودُّون أن يردوهم كفارًا من بعد ما تبيَّن لهم الحق؛ وهو نبوءة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٤)].

---

(١) «الفوائد» (ص١٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩٠).

(٣) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥).

(٤) «الجواهر الحسان» (١/ ٣٠٢).

وقال: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ ليبين أنَّ حسدهم لم يكن عن شبهة دينية، أو غيرة على حقٍّ يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس، وفساد الأخلاق، والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق[١].

٢- وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٥٤].

قال القرطبي: وهذا هو الحسد بعينه الذي ذمَّه الله تعالى.

وقال أبو السعود: مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شرُّ الرذائل وأقبحها؛ لاسيما على ما هم بمعزل من استحقاقه[٢].

أقوال السلف والعلماء في الحسد:

قال معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة؛ فإنه لا يرضيه إلا زوالها».

قال أبو الليث السمرقندي: «يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: **أولاها:** غمٌّ لا ينقطع، **الثانية:** مصيبة لا يُؤجر عليها، **الثالثة:** مذمَّة لا يُحمد عليها، **الرابعة:** سخط الرب، **الخامسة:** يغلق عنه باب التوفيق»[٣].

أسباب الوقوع في الحسد:

١- العداوة والبغضاء: وهذا أشد أسباب الحسد؛ فإنَّ مَن آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٣٤٦).
(٢) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٣٨، ٣٣٩).
(٣) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٤٢، ٤٣٤).

نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفَّى بنفسه أحبَّ أن يتشفَّى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها، وظنَّها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنَّه ضدُّ مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

٢- **الكبر**: وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه، ويستصغره، ويستخدمه، ويتوقَّع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوَّف إلى مساواته، أو إلى أن يرتفع عليه، فيعود متكبرًا بعد أن كان متكبرًا عليه.

٣- **حب الرياسة وطلب الجاه**: وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فنٍّ من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر، وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحبَّ موته، أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة؛ من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة، أو جمال، أو ثروة، أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده[١].

نماذج منعها الحسد من الهداية:

١- إبليس:

خلق الله جَلَّ وَعَلَا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وشرَّفه وكرَّمه، وأمر الملائكة بالسجود له، ولكن إبليس تكبر وبغى، وحسده على هذه المنزلة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ

---

(١) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩).

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف]. قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أعطاه من الكرامة»، وقال: «أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ»، وقال ابن عطية: «أول ما عصي الله بالحسد، وظهر ذلك من إبليس».

ومن شدة حسد إبليس أنه لما تبين مقت الله له وغضبه عليه، أراد أن يغوي بني آدم ليشاركوه المقت والغضب، وقد ذكر الله حال إبليس هذا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف] قال ابن القيم: الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنَّه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أنَّ إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدًا؛ فالحاسد من جند إبليس[(١)].

٢- حسد اليهود والنصارى:

بيَّن الله تعالى أنَّ أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسدوه على ما آتاه الله من فضله، حتى إنهم زعموا أنَّ كفار مكة أهدى من المؤمنين برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، ومع كفرهم فإنهم يودون لو يرتد المسلمون عن دينهم حسدًا وحقدًا؛ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا

(١) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٥٦).

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩] قال ابن كثير: يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم، وفضل نبيهم.

٣- حسد كفار قريش:

أكرم الله نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة، ولكن كفار قريش حسدوه على هذا الفضل، وظنوا أنَّ النبوة مبنية على مقاييسهم الدنيوية المختلة، وقد ذكر الله تعالى ذلك عنهم ووبخهم على سوء فهمهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف] قال النسفي: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٩] تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ [القصص:٦٩] من عداوة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسده، وما يعلنون من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة.

٤- حسد المنافقين:

المنافقون يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر والعداوة، وتكاد قلوبهم تشقق حسدًا وغيظًا وحقدًا؛ قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠]؛ قال ابن كثير: «وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم؛ ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة -أي: جدب- أو أديل عليهم الأعداء لما لله تعالى في ذلك من

الحكمة -كما جرى يوم أحد- فرح المنافقون بذلك». وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾ [محمد:٢٩] قال ابن كثير: «أيعتقد المنافقون أنَّ الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبيَّن فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى: «الفاضحة»، والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره»[(١)].

٥- تحاسد بعض الطلبة والأقران:

قد يجرُّ التنافس بين بعض طلبة العلم إلى الوقوعِ في بعض التحاسد.

قال الذهبي: «كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة، أو لمذهب، أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾».

رابعًا: الكبـــر:

وهو من أعظم الآفات الصارفة عن الهداية والمانعة من قبول الحق؛ فهو من أسوأ الأمراض التي تصيب القلب، وما من خلق من الأخلاق المذمومة إلا وتجد صاحبه متصفًا به؛ فهو لا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع، ويملأ الحقد قلبه، ولا يستطيع دفع الحسد عن نفسه؛ فلا يقبل نصيحة ناصح ولا تعليم عالم، ويعامل الناس بالازدراء والاحتقار، إذا مشى اختال، وإذا تكلم افتخر، وإذا ذُكِّر من أحد سخر منه وحقره، يغضب إذا لم يكن له صدر المجلس وأوله، ولذا حجب صاحبه من الجنة

---

(١) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٥٨- ٣٥٩).

بعد أن حجب عن محاسن الأخلاق وجميل الخصال، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١).

معنى الكبر اصطلاحًا: «**الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٢).

ذم الكبر والنهي عنه:

أولًا: في القرآن الكريم:

١- الكِبْر من أوَّل الذنوب التي عُصي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها؛ قال الله تعالى مبيِّنًا سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤].

قال الطبري: «وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق».

وقال عوف بن عبد الله للفضل بن المهلب: إنِّي أريد أن أعظك بشيء: إيَّاك والكِبْر، فإنَّه أول ذنب عصى الله به إبليس، ثم قرأ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة:٣٤].

- والكِبْر سبب رئيس في هلاك الأمم السابقة:

فهؤلاء قوم نوح ما منعهم عن قبول الدعوة، والاستماع لنداء الفطرة والإيمان إلا الكِبْر؛ فقد قال الله تعالى على لسان نبيِّهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح:٧].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥)، والترمذي (١٩٩٩).

(٢) رواه مسلم (٩١/ ٧٠٣١).

وهؤلاء قوم عاد ظنوا بسبب تكبرهم أنَّه لا قوة أشدُّ من قوتهم؛ فقد قال الله عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت].

– وهو سبب للصرف عن دين الله؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

يقول ابن كثير في تفسير قوله: «﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦] قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي، قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة، قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس] وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: وإن ظهر

لهم سبيل الرشد -أي: طريق النجاة- لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلًا، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئًا مما فيها، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى المات حبط عمله، وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وكما تدين تدان»[(١)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦] أَيْ: يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيَرُدُّونَ الحجج الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ الله ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أَيْ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاحْتِقَارٌ لِمَنْ جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾[(٢)].

وها هي ثمود من بعدهم ينهجون نفس النهج في الاستكبار والتعالي، فيردون دعوة الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكذبون نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ

---

(١) انظر: «المصباح المنير في تهذيب ابن كثير».
(٢) «تفسير ابن كثير» (ص١٦٤٥).

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف].

وقال الله تعالى عن قوم نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨].

أما فرعون فقد ملأ الدنيا كبرًا وعجبًا وخيلاءً، حتى وصل به الحال أن ادَّعى الربوبية والألوهية؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص].

- والكِبْر سبب في الإعراض عن آيات الله والصد عنها؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية].

وهو سبب لدخول النَّار والخلود فيها؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠].

ثانيًا: في السنة النبوية:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١).

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

قال النووي في شرح الحديث: «قد اختلف في تأويله؛ فذكر الخطابي فيه وجهين:

أحدهما: أن المراد التكبر عن الإيمان، فصاحبه لا يدخل الجنة أصلًا إذا مات عليه.

والثاني: أنَّه لا يكون في قلبه كبر حال دخوله الجنَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣].

وهذان التأويلان فيهما بعد؛ فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكِبْر المعروف، وهو الارتفاع على الناس، واحتقارهم، ودفع الحق، فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب، بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين: أنَّه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه. وقيل: هذا جزاؤه لو جازاه، وقد يتكرم بأنه لا يجازيه، بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة إمَّا أولًا، وإمَّا ثانيًا بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها، وقيل: لا يدخل مع المتقين أوَّل وهلة».

وقال ابن القيم: «فسر النَّبي الكِبْر بضده فقال: «**الكِبْر: بطر الحق وغمط الناس**»، «فبطر الحق»: رده، وجحده، والدفع في صدره؛ كدفع الصائل، «وغمط الناس»: احتقارهم، وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها»[(١)].

أقوال السلف والعلماء في الكبر:

- قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حَكَمَتَه[(٢)]، وقال له: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه حقير، وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبَّر وعتا

(١) «موسوعة الأخلاق» (ص٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) حكمة الإنسان: مقدمة وجهه. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١٢/ ١٤٤).

وَهَصَه[١] الله إلى الأرض، وقال له: اخسأ خسأكَ الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير»[٢].

- وقال أبو عثمان النيسابوري: «ما ترك أحد شيئًا من السنة إلا لكبر في نفسه، ثم هذا مظنة لغيره، فينسلخ القلب عن حقيقة اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويصير فيه من الكِبْر وضعف الإيمان ما يفسد عليه دينه، أو يكاد، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾»[٣].

خامسًا: حب الرياسة (وهو من أعظم موانع الهداية):

فكم من إنسان ما حال بينه وبين الهداية وقبول الحق إلا محبة الرياسة وحب الظهور؛ فإنه يقصم الظهور.

وحب الرياسة شهوة خفية في النفس؛ فقد يزهد المرء في الطعام والشراب والثياب؛ لكنه يقاتل على الرياسة ويسعى إليها بكل سبيل؛ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت زهدًا في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب؛ فإن نوزع الرئاسة والى عليها وعادى، وقال يوسف بن أسباط: الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا.

ولذا كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يحذرون من يحبون منها، فقد كتب سفيان إلى صاحبه عباد بن عباد رسالة فيها: «إياك وحب الرئاسة؛ فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقَّد نفسك واعمل بنية.

---

(١) **وهصه**: كسره ودقه. انظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٣/ ٣٦١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٤٦١) (٧/ ٩٦)، وأبو داود في «الزهد» (ص٨٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠/ ٤٥٤).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (٢/ ١٢٠).

وقال يحيى بن معاذ: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرئاسة».

ووصف شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حب الرئاسة بالشهوة الخفية حيث قال محذرًا: «يا بقايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»، قيل لأبي داود السجستاني: «ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة».

قال ابن تيمية: «فهي خفية؛ تخفى عن الناس وكثير ما تخفى على صاحبها».

لكنها وإن كانت خفية إلا أن لها أمارات وعلامات تفضحها وتهتك سترها، ومن هذه العلامات ما ذكره الفضيل بن عياض: «ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس، وكره أن يذكر أحد بخير».

ومن علاماتها: الحسدة إذا زالت أو سلبت من صاحبها.

يقول ابن الجوزي: «وقد يكون الواعظ صادقًا قاصدًا للنصيحة إلا أن منهم من شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيحب أن يُعظَّم، وعلامته: أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك، ولو صحَّ قصده لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق».

ولله در عبدالرحمن بن مهدي حيث يقول: «كنتُ أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور فقال: هذا مجلس سوء فلا تعُد إليه، فما عدتُ إليه.

ومن علامات حب الرئاسة أيضًا: إخفاء صاحبها هالات وهمية زائفة على نفسه؛ كادعاء المواعيد الكاذبة والانشغالات ليلقى في روع الناس علو قدره، وارتفاع منزلته وتهافت الناس عليه.

كما أن من علامتها أن صاحبها لا ينشط إلا إذا كان في موقع الرئاسة؛ فإذا كان مرؤسًا تهرب وتقاعس، كما أن محب الرئاسة يصر على رأيه ولا يتنازل عنه ولو ظهرت الأدلة ببطلانه.

نماذج منعها حب الرئاسة من قبول الهداية:

وإليك بعض النماذج التي حالت محبة الرئاسة بينهم وبين الهداية فنالوا شقاء الأبد والخسران المبين.

١- هرقل:

ممن منعته الرياسة الاستجابة للحق والهداية هرقل عظيم الروم، والذي أرسل إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كتابه يدعوه فيه إلى الإسلام فقرأه وسأل أبا سفيان عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتيقن أنه الرسول الذي بشر به عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، لكن منعه من الإيمان به الحرص على ملكه ورياسته فخسر خسران الأبد.

وإليك قصته بالكامل كما رواها الإمام البخاري: عن عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ:

أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ.

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟

فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟

قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟

قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ:

سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا؛ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ، قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ[(١)].

٢- عبدالله بن أبي بن سلول:

وممن حال حب الرئاسة بينه وبين الهدي رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول، حيث قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة وأهلها يرتبون تنصيبه سيدًا على المدينة، ويعدون التاج له ليتوج به؛ فلما قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصرفوا عن ذلك، ودخل من لم يكن قد دخل قبل ذلك من الأوس والخزرج، فبقي ذلك في نفسه حتى أظهر الإسلام وأبطن الكفر والعداء لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولدين الحق، حتى صار رأسًا للنفاق إلى أن لقي حتفه.

---

(١) رواه البخاري (٧).

وكثير من الأحبار والرهبان والرؤوس ما يمنعهم من قبول الحق إلا حب الرئاسة والجاه.

يقول الإمام ابن القيم مبينًا فضيلة ابن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإيثاره للحق على الرياسة بخلاف كثير من رؤوس اليهود والنصارى: «فأسلم عبد الله بن سلام حين مقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة لما رأى أعلام النبوة التي كان يعرفها وشاهدها فيه، وترك الأغراض التي منعت المغضوب عليهم من الإسلام؛ من الرئاسة والمال والجاه بينهم، وقد شهدوا له كلهم عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رئيسهم وخيرهم وسيدهم، فعلم أنهم إن علموا بإسلامه أخرجوه من تلك الرئاسة والسيادة، فأحب أن يعلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال: أدخلني بعض بيوتك وسلهم عني، ففعل، وسألهم عنه فأخبروه أنه سيدهم ورئيسهم وعالمهم، فخرج عليهم وذكرهم وأوقفهم على أنهم يعلمون أنه رسول الله، وقابلهم بذلك، فسبوه وقدحوا فيه وأنكروا رئاسته وسيادته وعلمه.

فلو كان عبد الله بن سلام ممن يؤثر عرض الدنيا والرئاسة لفعل كما فعله إخوان القردة وأمة الغضب والقوم البهت.

وهكذا شأن من أسلم من يهود خيبر.

وأما المتخلفون فكثير؛ منهم صرح بغرضه لخاصته وعامته، وقال: إن هؤلاء قد عظّمونا ورأّسونا وملّكونا فلو اتبعناه لنزعوا ذلك كله منا.

وهذا قد رأيناه نحن في زماننا وشاهدناه عيانًا، ولقد ناظرنا بعض علماء النصارى معظم يوم، فلما تبين له الحق بهت، فقلت له وأنا وهو خاليان: ما يمنعك الآن من اتباع الحق؟ فقال لي: إذا قدمت على هؤلاء الحمير -هكذا لفظه- فرشوا الشقاق تحت حوافر

دابتي، وحكموني في أموالهم ونسائهم، ولم يعصوني فيما آمرهم به، وأنا لا أعرف صنعة، ولا أحفظ قرآنًا، ولا نحوًا ولا فقهًا، فلو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس، فمن الذي يطيب نفسا بهذا؟! فقلت: هذا لا يكون، وكيف تظن بالله أنك إذا أسلمت وآثرت رضاه على هواك يخزيك ويحوجك؟! ولو فرضنا أن ذلك أصابك، فما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه فيه أتم العوض عما فاتك، فقال: حتى يأذن الله، فقلت: والقدر لا يحتج به، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على تكذيب المسيح، وحجة للمشركين على تكذيب الرسل، ولا سيما أنتم تكذبون بالقدر، فكيف تحتج به؟! فقال: دعنا الآن من هذا، وأمسك»[١].

سادسًا: الذنوب والمعاصي:

ومن الموانع التي تحول بين العبد وينل الهداية والتوفيق إلى الحق: اقتراف الذنوب والمعاصي والآثام، فما أعظم ضررها على القلب؛ يقول الإمام ابن القيم مبينًا عقوباتها: «ومن عقوباتها -أي: الذنوب- أنها تعمي القلب؛ فإن لم تعمي أضعفت بصريته ولابد، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصريته وقوته»[٢].

ويقول أيضًا في معرض ذكر العقوبات التي رتبها الله سبحانه على الذنوب والآثام، فمنها: والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الربّ، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهيرَ القلب، وجعل الصدر ضيّقًا حرجًا كأنما يصعّد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها ونكسها بحيث تبقى منكوسة؛ كما ذكر الإِمام أحمد، عن

(١) «هداية الحيارى» (ص٢٠٢: ٢٠٤).

(٢) «الدواء والدواء» لابن القيم (ص٢٢٠).

حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: القلوب أربعة: فقلبٌ أجرَدُ فيه سراج يُزهِر، فذلك قلب المؤمن.

وقلبٌ أغلَفُ، فذلك قلب الكافر. وقلبٌ منكوس، فذلك قلب المنافق.

وقلبٌ تُمِدُّه مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غَلَبَ عليه منهما.

ومنها: التثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصمّ لا يسمع الحقّ، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه؛ فيصير النسبة بين القلب وبيّن الحقّ الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصمّ والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام.

وبهذا يعلم أنّ الصمَم والبكَم والعَمَى للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. وليس المراد نفي العمى الحسّي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس]؟! وإنّما المراد أنّ العمى التامّ في الحقيقة عمى القلب، حتى إنّ عمى البصر بالنسبة إليه كـ(لاعمى)، حتّى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(١).

وقوله: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ هَذَا الطَّوَافَ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَيَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ**»(٢)، ونظائره كثيرة.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٦٨٠٩).
(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (٢٤٤٠).

والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم. اهـ[(١)].

السبب الخامس: مانع الشهوة والمال:

وهو الذي منع كثيرًا من أهل الكتاب من الإيمان خوفًا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير إليهم من قومهم، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها؛ فكانوا يقولون لمن يحب الزنا أن محمدًا يحرم الزنا ويحرم الخمر، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام.

وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب في الإسلام وصحته فكان آخر ما كلمني به أحدهم: أنا لا أترك الخمر وشربها، وإذا أسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربها، وقال آخر منهم بعد أن عرف ما قلت له: لي أقارب أرباب أموال، وإني إن أسلمت لم يصل إلي منها شيء، وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال.

ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعي الشهوة والمال، وضعف داعي الإيمان، فيجيب داعي الشهوة والمال، ويقول: لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي.

السبب السادس: محبة الأهل والأقارب والعشيرة:

يرى أنه اذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم، وهذا سبب بقاء خلف كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السبب السابع: محبة الدار والوطن:

وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب، لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه.

---

(١) «الدواء والدواء» لابن القيم (ص٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥) بتصرف يسير.

السبب الثامن: تخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذماً لهم.

وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام؛ استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح، وهو الكفر والشرك، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت: ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فكان آخر ما كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب، فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب، وأنه إنما حاز الفخر والشرف به، فكيف يأتي أمرًا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه؟ ولهذا قال: لولا أن تكون مسبة على بني عبد المطلب لأقررت بها عينك أو كما قال، وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

وفي قصيدته اللامية:

فو الله لولا أن تكون مسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه: شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول، فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه.

السبب التاسع: متابعة من يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصصه وقربه منه:

وهذا القدر منع كثيرًا من اتباع الهدى؛ يكون للرجل عدو ويبغض مكانه، ولا يحب أرضًا يمشي عليها، ويقصد مخالفته ومناقضته، فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله وإن كان لا عداوة بينه وبينهم.

وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار؛ فإنهم كانوا أعدائهم، وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم.

السبب العاشر: مانع الإلف والعادة والمنشأ:

فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة، ولهذا قيل: هي طبيعة ثانية، فيربى الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيرًا، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد، ولا يعقل نفسه إلا عليها، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها، فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال، وهذا السبب وإن كان أضعف الأسباب معنًى، فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل، ليس مع أكثرهم بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذ؛ إلا عادة ومربي تربى عليه طفلًا لا يعرف غيرها ولا يحس به؛ فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله، خصوصًا على خاتمهم وأفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة، ونقلوهم إلى الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدًا من العالمين[1].

(١) «مفتاح دار السعادة».



المبحث الخامس

في القلب وأقسامه وسائر أحواله

❁ لماذا ينبغي الانشغال بإصلاح القلب أولًا؟

❁ أعمال القلب و عباداته هي أشرف العبادات وأعلاها.

❁ تفاضل الناس بحسب تفاضل ما في قلوبهم.

❁ مفهوم القلب في ضوء الكتاب والسنة.

❁ أقسام القلوب.

❁ محركات القلوب ثلاث.

❁ اليقين مركب السائرين إلى الله.

❁ واليقين ثلاث درجات.

❁ الفتن والقلوب.

❁ التدابير الواقية من فتنة الشبهات.

❁ لا تكن من تستفزه البداءات.

❁ المنجيات من فتنة الشهوات.

❁ بم يستقيم القلب؟!.

❁ الحجب العشرة التي تحجب القلب عن الرب.

المبحث الخامس



في القلب وأقسامه وسائر أحواله

لماذا ينبغي الانشغال بإصلاح القلب أولًا؟

لأن صلاح الجسد كله متوقف على صلاح القلب كما في الحديث: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١].

يقول العلامة ابن رجب: «فيه إشارة إلى: أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه؛ فإن كان قلبه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدًا، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة،

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (٤١٧٨).

ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء]...»، إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله؛ فسارعت إلى ما فيه رضاه وكفت عما يكرهه، وعما يخشى أن يكون مما يكرهه وإن لم يتيقن ذلك»(١).

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب تجد ملكًا عظيمًا جالسًا على سرير مملكته؛ يأمر وينهى ويولي ويعزل، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند كلهم في خدمته، إن استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا وإن فسد فسدوا، فعليه المعول، وهو محل نظر الرب تعالى، ومحل معرفته ومحبته وخشيته والتوكل عليه والإنابة إليه والرضى به وعنه، والعبودية عليه أولًا وعلى رعيته وجنده تبعًا، فأشرف ما في الإنسان قلبه؛ فهو العالم بالله الساعي إليه المحب له، وهو محل الإيمان والعرفان، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل المخصوص بأشرف العطايا من الإيمان والعقل، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي آثاره؛ فإن أظلم أظلمت الجوارح وإن استنار استنارت، ومع هذا فهو «بين إصبعين من أصابع الرحمن عَزَّوَجَلَّ».

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد، أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلي إلي، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين، وكره عَزَّوَجَلَّ انبعاث آخرين فثبطهم، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]، كانت

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٥ - ١٠٧).

أكثر يمين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا، وَمُقَلِّبُ الْقُلُوبِ**»، وكان من دعائه: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك**»(١)، قال بعض السلف: القلب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانها، وقال الآخر: القلب أشد تقلبًا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف» اهـ(٢).

ثواب العبد في الأعمال على قدر ما في قلبه:

مما يحتم على العبد الانشغال بإصلاح قلبه أن ثوابه في الأعمال الظاهرة بقدر ما في قلبه من إخلاص وخشوع وحضور.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لِيَنْصَرِفُ مِنَ الصَّلَاةِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، ثُلُثُهَا، رُبُعُهَا حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا**»، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»، فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنَّا لا نأمره بالإعادة، ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها، فيقال: صلاة صحيحة مع أنه لا يثاب عليها فاعلها»(٣).

أعمال القلب وعباداته هي أشرف العبادات وأعلاها:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَمَنْ اُسْتُعْبِدَ بِحَقٍّ إذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ

(١) **صحيح**: رواه الحاكم (٧٩٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٢٨).
(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٥٩).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٠).

أَجْرَانِ، وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ، وَأَمَّا مَنْ اسْتُعْبِدَ قَلْبُهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ؛ فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ»[(١)].

تفاضل الناس بحسب تفاضل ما في قلوبهم:

وتفاوت الناس في المنازل والدرجات يكن بحسب تفاوتهم في أعمال القلوب؛ فالأعمال إنما تتفاضل بحسب تفاضل ما في القلوب، فقد تكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض، وذلك بحسب ما في القلب؛ يقول الإمام ابن القيم: «إن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض»، وقال: «وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه. اهـ»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا أن سبب تفاضل الناس في الأعمال الظاهرة إنما هو بسبب تفاضلهم في أعمال القلوب؛ يقول: «فإن من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن، أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب، ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية، وفي الصحيحين عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ**

(١) نقلًا عن «فتح العلي الكبير» (ص٣٩٥).
(٢) «فتح العلي الكبير» (ص٢٠٥).

مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[(١)]، وقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(٢)]، وقال له عمر رَضِيَ ٱللَّٰهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»[(٣)].

هذه الأحاديث ونحوها في الصحاح، وفيها بيان تفاضل الحب والخشية، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإنه قد يكون الشيء يحبه تارة أكثر من تارة، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة، ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولًا بدخول الزيادة والنقصان فيه؛ لما يجدون من ذلك في أنفسهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وإنما زادهم طمأنينة وسكونًا، قال صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا»[(٤)] اهـ[(٥)].

مفهوم القلب في ضوء الكتاب والسنة:

قال أهل اللغة في معناه، هو: الفؤاد، والعقل المحض، وخالص كل شيء؛ فالقلب في الأصل معناه: خالص كل شيء، وسميت المضغة الصنوبرية قلبًا؛ لكونها أشرف

(١) رواه البخاري (٦٩٤١)، ومسلم (١٧٤).
(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (١٧٨).
(٣) رواه البخاري (٦٦٣٢)، ومسلم (٤٤).
(٤) **صحيح**: رواه وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) وقال: «حسن صحيح»، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠ و٤٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٢).
(٥) «فتح العلي الكبير» (ص٢٠٣، ٢٠٤).

الأعضاء؛ لما فيها من العقل -على رأي- وسرعة الخواطر والتلون في الأحوال، ولأنها مقلوبة الخلقة والوضع كما يشهد به علم التشريح.

ومن تقاليبه: القَبول والقابلية، وهو سيد البدن المعوَّل عليه في الصلاح والفساد، وأعظم الأعضاء الموسومة بالسعة من جانب الحق، ومعدن الروح الحيواني للنفس الإنساني، ومنبع الشعب المنبثة في أقطار البدن، ومنه ترد الحياة إلى الأعضاء الجسمية؛ على قدر السوية بمقتضى العدل.

قال الجرجاني: «القلب مصطلح على اللطيفة الربَّانية بالقلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع من الصدر، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان».

والقلب يطلق على أمرين هما:

الأول: تلك المضغة الصنوبرية التي خلقها الله تعالى في جوف ابن آدم، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الشهادة، كما هو معروف في علم الطب العضوي.

والثاني: تلك اللطيفة الروحانية التي لا يعلم أحدٌ بحقيقتها، وهي على هذا المعنى جزء من عالم الغيب.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويطلق القلب على معنيين:

أحدهما: أمر حسي؛ وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف، وفي التجويف دم أسود، وهو منبع الروح.

والثاني: أمر معنوي؛ وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية» اهـ[(١)].

(١) «التبيان» (ص٢٥٩، ٢٦٠).

بهذا تتجلى في هذا الإنسان مكوناته المادية والروحية؛ فهو قبضة من طين، ونفخة من روح.

وفي حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جمع المعنيين: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

قال ابن حجر: «أي: قدر ما يُمضغ، وعبَّر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية».

أقسام القلــوب:

أولًا: القلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء] والسليم: هو السالم، وجاء على هذا المثال؛ لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف، فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له؛ كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءًا، وخلص

---

(١) سبق تخريجه.

عمله لله؛ فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال: من أقوال القلب -وهي: العقائد- وأقوال اللسان -وهي: الخبر عما في القلب- وأعمال القلب -وهي: الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها- وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقة وجلّه هو مما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. اهـ(١).

ولا يكون القلب سليمًا حتى يسلم من خمسة أشياء:

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ.

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِدَ وَالْإِخْلَاصَ.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (ص١١).

وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ» اهـ[١].

القلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط؟ فهو متعبد لغير الله؛ حبًّا وخوفًا ورجاء ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًّا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه؛ فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادي إلى الله وإلى الدار الاخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣]، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عَـدُو لِمَـنْ عَـادَتْ، وَسِـلْمٌ لأَهْلِهَا ... مَـنْ قَـرَّبَـتْ لَـيْلَـى أَحَـبَّ وَأَقْـرَبَا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة؛ فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما؛ ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب؛ وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

(١) «الداء والدواء» (ص٢٨٢، ٢٨٣).

فالقلب الأول، حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض؛ فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج].

فجعل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا، فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله؛ وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته وعدم التأتي لما يراد منه؛ كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العِنِّين والعين التي لا تبصر شيئًا، وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد؛ فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم(١).

محركات القلوب ثلاث:

ومحركات القلوب إلى الله التي تجعل القلب معتصمًا بالله عَزَّوَجَلَّ فتقل آفاته بل تذهب عنه بالكلية بحول الله عَزَّوَجَلَّ وقوته ثلاثة محركات وهي:

المحبة، والخوف، والرجاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَلَابُدَّ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةٍ تَحَرُّكِ الْقُلُوبِ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَتَعْتَصِمُ بِهِ فَتَقِلُّ آفَاتُهَا أَوْ تَذْهَبُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ؛ فَنَقُولُ: اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: الْمَحَبَّةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ.

وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ تُرَادُ لِذَاتِهَا؛ لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِخِلَافِ الْخَوْفِ فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ الطَّرِيقِ؛ فَالْمَحَبَّةُ تُلْقِي الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إلَى مَحْبُوبِهِ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إلَيْهِ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ، وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ، فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ لَا لِغَيْرِهِ.

فَإِنْ قِيلَ فَالْعَبْدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ مَحَبَّةٌ تَبْعَثُهُ عَلَى طَلَبِ مَحْبُوبِهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ يُحَرِّكُ الْقُلُوبَ؟

قُلْنَا: يُحَرِّكُهَا شَيْئَانِ:

---

(١) إغاثة اللهفان (ص١٠).

أَحَدُهُمَا: كَثْرَةُ الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِهِ تُعَلِّقُ الْقُلُوبَ بِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِالذِّكْرِ الْكَثِيرِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب].

وَالثَّانِي: مُطَالَعَةُ آلَائِهِ وَنَعْمَائِهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَسْخِيرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ -وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَشْجَارِ وَالْحَيَوَانِ- وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنْ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ مِنْ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عِنْدَهُ بَاعِثًا.

وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ تُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالزَّجْرِ وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ وَنَحْوِهِ، وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ يُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ الْكَرَمِ وَالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ.

وَمَا وَرَدَ فِي الرَّجَاءِ وَالْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَاسِعٌ؛ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مَبْلَغُ التَّنْبِيهِ عَلَى تَضَمُّنِهِ الِاسْتِغْنَاءَ بِأَدْنَى إشَارَةٍ، وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أَعْلَم، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ» اهـ[1].

كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح المنازل: فهذا فصل مختصر نافع في ذكر الحياة وأنواعها، والتشويق إلى أشرفها وأطيبها؛ فمن صادف من قلبه حياة انتفع به، وإلا فخود تزف إلى ضرير مقعد.

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٣، ٧٤).

فلنرجع إلى شرح كلام صاحب المنازل:

قال: ولها ثلاثة أنفاس: نفس الخوف، ونفس الرجاء، ونفس المحبة.

لما كان لكل حيوان متنفسًا؛ فإن النفس موجب الحياة وعلامتها، كانت أنفاس الحياة المشار إليها ثلاثة أنفاس:

❁ **نفس الخوف؛ ومصدره:** مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة، والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد.

❁ **ونفس الرجاء؛ ومصدره:** مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى، وما الله أعد لمن آثر الله ورسوله والدار الآخرة، وحكَّم الهدى على الهوى، والوحي على الآراء، والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على عوائد الخلق.

❁ **ونفس بالمحبة؛ مصدره:** مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه تنفس بالخوف، وإذا ذكر رحمة ربه وسعة مغفرته وعفوه تنفس بالرجاء، وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه تنفس بالحب.

فليزن العبد إيمانه بهذه الأنفاس الثلاثة؛ ليعلم ما معه من الإيمان، فإن القلوب مفطورة على حب الجمال والإجمال، والله سبحانه جميل، بل له الجمال التام الكامل من جميع الوجوه -جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، وإذا جمع جمال المخلوقات كله على شخص واحد، ثم كانت جميعها على جمال ذلك الشخص، ثم نسب هذا الجمال إلى جمال الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس.

فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة أشرف أنفاس العبد على الإطلاق، فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي؟ ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن **أحدهما:** ثمرة تركه للمخالفات.

والثاني: ثمرة فعله للطاعات؛ فمن هذين النفسين يصل إلى النفس الثالث. اهـ[(١)].

اليقين مركب السائرين إلى الله:

اليقين هو من الإيمان منزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين، ولد بينهما حصول الإمامة في الدين؛ قال الله تعالى -وبقوله يهتدي المهتدون-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين؛ فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات:٢٠].

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة].

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية:٣٢].

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين، عن التيمي، عن خيثمة، عن عبدالله بن مسعود، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسَخَطِ اللهِ، وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللهِ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ؛ فَإِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ،**

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤).

وَلَا يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهِيَةَ كَارِهٍ، وَإِنَّ اللهَ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ»(١).

واليقين قرين التوكل؛ ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به؛ قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩] فالحق: هو اليقين، وقالت رسل الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢].

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه؛ فهو مادة جميع المقامات والحامل لها. اهـ(٢).

«وقال ذو النون: اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب.

وقال أبو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله، وبالعقل عقل عن الله.

واليقين يحمله على الأهوال وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتقدم دائمًا، فإن لم يقارنه العلم حمل على المعاطب، والعلم يأمر بالتأخر والإحجام فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم، والله أعلم.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٥)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه خالد بن يزيد العمري، واتهم بالوضع»، وقال الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٠٦٤): «موضوع».

(٢) «مدارج السالكين» بتصريف يسير (ص١١٩، ١٢٠).

ولما كان اليقين هو الذي يحمل السائر إلى الله كما قال أبو سعيد الخراز: «العلم ما استعملك واليقين ما حملك -سماه مركبًا يركبه السائر إلى الله-؛ فإنه لولا اليقين ما سار ركب إلى الله، ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

واليقين ثلاث درجات:

الأولى: قبول ما ظهر من الحق تعالى:

والذي ظهر منه سبحانه: أوامره ونواهيه وشرعه، ودينه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رسله، فنتلقاه بالقبول والانقياد، والإذعان والتسليم للربوبية، والدخول تحت رق العبودية.

الثانية: قبول ما غاب للحق:

وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وطي العالم، وما قبل ذلك من أمور البرزخ، ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله -إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا- هو اليقين؛ بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة ولا شك ولا تناس، ولا غفلة عنه؛ فإنه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه.

الثالثة: الوقوف على ما قام بالحق سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله:

وهو علم التوحيد الذي أساسه إثبات الأسماء والصفات، وضده التعطيل والنفي والتهجم؛ فهذا التوحيد يقابله التعطيل.

وأما التوحيد القصدي الإرادي الذي هو إخلاص العمل لله، وعبادته وحده فيقابله الشرك.

والتعطيل شر من الشرك؛ فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الإلهية؛ فإن ذاتًا لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا ترضى، ولا تغضب، ولا تفعل شيئًا، وليست داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة، ولا مجانبة له، ولا مباينة له، ولا مجاورة ولا مجاوزة، ولا فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن يمينه ولا عن يساره سواء هي والعدم.

والمشرك مقر بالله وصفاته؛ لكن عبد معه غيره، فهو خير من المعطل للذات والصفات.

فاليقين: هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، وتوحيده، وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهي، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد، وعلم المعاد واليوم الآخر، والله أعلم. اهـ[(١)].

الذكر قوت القلوب:

«وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوِينَا بِذِكْرِكُمُ فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

به يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم؛ فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون.

---

(١) «مدارج السالكين» بتصريف يسير (١/ ١٢١-١٢٤).

يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور؛ بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة؛ بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال -قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم- فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين؛ فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته؛ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن؛ فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان؛ قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم» اهـ[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٨، ١٣٩).

الفتن والقلـــوب:

الفتن ترد على القلب تباعًا:

ومما ينبغي أن يُعلم أن الفتن لا ترد على القلب جملة واحدة، بل ترد عليه تباعًا؛ فإذا أنكرها وردها نجا وسلم، وإن تأثر بها إن لم يتغمده الله برحمته هلك لا محالة.

قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ**»[(١)].

يقول ابن القيم: «فشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدان الحصير، وهي طاقتها شيئًا فشيئًا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

- **قلب** إذا عرضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز مجخيًّا» أي: مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسوّد وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، و السنة بدعة والبدعة سنة، و الحق باطلًا و الباطل حقًّا.

---

(١) رواه مسلم (١٤٤).

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وانقياده للهوى واتباعه له.

- **وقلب** أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه؛ فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات، وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد[١].

الفتن الواردة على القلب نوعان:

والفتن التي ترد على القلب فتكون سببًا في مرضه وخروجه عن السلامة والصحة نوعان: فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات.

الأولى تفسد العلم، والثانية تفسد الإرادة، وإيضاح ذلك أن الهدي قائم على أمرين: **أولهما:** تصديق الخبر، **والثاني:** امتثال الأمر، ويتبعهما أمران: نفي شبهات الباطل التي تمنع من كمال التصديق، ونفي شهوات الغي التي تمنع من كمال الامتثال.

يقول الإمام ابن القيم: «ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله، وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران وهما: نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال، فهنا أربعة أمور:

(١) «إغاثة اللهفان» (ص١٢: ١٤).

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والانس في معارضته.

الثالث: طاعة الأمر.

والرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران -أعني: الشبهات والشهوات- أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين -وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر- أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده، وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم، والمعرفة، والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل؛ فالشبهة تؤثر فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها»[(١)].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتنة الشبهات -وهي أعظم الفتنتين- وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحداهما.

الفتنة الأولى: فتنة الشبهات:

من ضعف البصيرة وقلة العلم، ولا سيّما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣]، وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٥٤).

ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم؛ فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال» اهـ[١].

والفتنة الثانية: فتنة الشهوات:

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو: النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات، فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان؛ من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الداعين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدع وما والاها. **والثاني:** فسق الأعمال.

فالأول فساد من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه، وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول أصل فتنة الشبهة، والثاني أصل فتنة الشهوة[٢].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (ص٤٦٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٤٦٨).



التدابير الواقية من فتنة الشبهات:

أولًا: تعلم الهدى ودين الحق:

فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب؛ فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ويتبع كل ناعق من دعات الباطل، بخلاف ما إذا استقر الحق في القلب فإنه يقوى به، ويمتنع مما يضره ويهلكه.

ولذا قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يا كميل بن زياد، القلوب أوعية فخيرها أوعاه فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، العلم يزكو على الإنفاق -وفي رواية: على العمل- والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه.

ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة لربه في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة.

هاه إنّ هاهنا علمًا -وأشار بيده إلى صدره- لو أصبت له حملة، بلى أصبته لِقنًا غير مأمون عليه؛ يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على عباده، أو منقادًا لأهل الحق لا بصيرة له في إحيائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا ولا ذاك، أو منهومًا باللذات سلس القياد للشهوات، أو مغري بجميع الأموال والادخار، وليسا من دعاة الدين في شيء، أقرب شبهًا بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قيلًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعَرَ منه المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه.

هاه هاه شوقًا إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم. اهـ[١].

يقول الإمام ابن القيم: «وقوله: «ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة» هذا لضعف علمه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب، بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكًا؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

والشبهة: وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكًّا مرتابًا.

والقلب يتوارده جيشان من الباطل: جيش شهوات الغي، وجيش شبهات الباطل، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تَشَرَّبَهَا وامتلأ بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه. اهـ[٢].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٥٦، ١٥٧).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٧٦).



ولأهمية العلم الشرعي في نجاة العبد كان طلبه جهادًا في سبيل الله؛ فأول مرتبة من مراتب جهاد النفس جهادها على تعلم الحق؛ يقول الإمام ابن القيم في مراتب جهاد النفس:

فجهاد النفس أربعُ مراتب:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجيه مِن عذاب الله.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربَّانيًّا حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه؛ فمَن علم وَعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السموات[1].

ثانيًا: الحذر من التعرض للفتن والشبهات:

إذ القلوب ضعيفة والفتن خطافة، فمن أعظم الأسباب المنجية من فتنة الشبهات والتدابير الواقية للقلب من سهامها عدم التعرض لها، وكما يقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القلوب ضعيفة والفتن خطافة؛ فالإصغاء للشبهات والاستشراف لها يؤدي إلى كثرة

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٩-١٠).

الواردات الفاسدة على القلب، والتي تؤدي إلى امتلائه بالشكوك التي تؤثر سلبًا على يقينه وصلابة إيمانه، فينتهي الأمر بإفساد القلب وانحرافه.

وقد أحسن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ النصح لتلميذه ابن القيم حين قال له: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل الاسفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليه صار ممرًا للشبهات أو كما قال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك» اهـ[(١)].

وما من شك أن أعظم وأجل نعم الله على العبد توفيقه للإيمان، واستشعار هذا المعنى يبعث الطمأنينة في النفس، والفرح بنعمة الله تعالى، ومسئولية المحافظة على هذا الإيمان، وقد استشعر الصحابة والسلف عظيم نعمة الله عليهم، وعبروا عن شعورهم هذا بشكل صريح يكشف عن مقدار حفاوتهم بهذه النعمة؛ فعن معاوية بن قرة أن سالم بن عبد الله حدثه، عن ابن عمر قال: أما فرحت لشيء من الإسلام أشد فرحًا بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء.

وقال أبو العالية: ما أدري أي الغمين عليّ أعظم إذا أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى.

وسأل المروزي الإمام أحمد بن حنبل: من مات على الإسلام والسنة مات على خير، فقال له أحمد: اسكت، من مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله.

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٧٦).

وإذا تدبرت في الكتب المعنية بتتبع الآثار السلفية خصوصًا في المجال العقدي فسينكشف لك فعلًا مدى التحوط الذي كان يبديه سلفنا الصالح في تعاطيهم مع الشبهات والإشكالات، والآثار في هذا الشأن كثيرة جدًّا؛ فمن صور ذلك التحوط العقدي أن رجلًا جاء إلى الحسن فقال: يا أبا سعيد، تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه.

وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب السختياني: «يا أبا بكر، أسألك عن كلمة، قال: فولى أيوب وجعل يشير بأصبعه: ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة.

ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي.

وكان ابن طاووس جالسًا فجاء رجل من المعتزلة فجعل يتكلم، قال: فأدخل ابن طاووس أصبعه في أذنيه، وقال لابنه: أي بني، أدخل أصبعيك في أذنيك، واشدد، ولا تسمع من كلامه شيئًا، قال معمر: يعني إن القلب ضعيف.

وليس هذا التحوط في حقيقته ناتج من ضعف معرفي، كلا، بل صحة التصور عندهم مبنية على حجج وبراهين ومعرفة للحق في مثل هذه الثوابت الشرعية، فلا مصلحة من إصغاء الأذن إلى شيء من الباطل، والذي قد يجتذب القلب صوبه خصوصًا وأن الأمر جد؛ إذ هو متعلق بأعظم المهمات في حياة الإنسان المسلم، ورحم الله مالك بن أنس إذ قال: الداء العضال التنقل في الدين، وقال: قال رجل: ما كنت لاعبًا به فلا تلعبن بدينك، وإذا تدبرت في أحوال كثير ممن يتقصدون موارد الشبه والإشكالات

وجدت قدرًا من هذا التقصد عائدًا إلى شيء من الغرور المعرفي الذي يظن صاحبه في نفسه خيرًا فينكشف جهله مع بواكير ما اطلع عليه من الشبهات.

فالسلامة لدين المرء متى ما قدر ولم تكن ثمة مصلحة شرعية معتبرة مباعدة مثل هذه الموارد والتعرف على الحق بدلائله الصحيحة أما البروز لكل شبهة وإشكال فطريق طويل وصاحبه عرضة لكثير من الزلل والخطأ والخطل. اهـ[١].

ثالثًا: بتجريد اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحكيمه في دق الدين وجله ظاهر أو باطن:

ومن أعظم ما ينجي العبد من فتنة الشبهات تجريد اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل الشئون؛ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولًا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل؛ لا يتلقى إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك، وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول فإن وافقه قبله؛ لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

(١) «ميلشيا الإلحاد» (ص١٧٨، ١٧٩).

وهذه الفتنة تنشأ: تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع؛ فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة» اهـ[(١)].

رابعًا: الحذر من زخارف الشبهات اللفظية وبهارجها البلاغية:

ومما يعصم المرء من الانحراف في الشبهات التعامل معها بعد تجريدها من الزخارف اللفظية والأساليب البلاغية، وغير ذلك مما يحاول أهل الزيغ به تزييف الباطل وإلباسه ثوب الحق؛ لينطلي على من قل علمه وضعف عقله؛ إذ أن كثيرًا ما يكون لقالب الشبهة اللفظي أو البلاغي أو النفسي تأثيرًا كبيرًا في إحداث حالة القبول بتلك الشبهة؛ فاللغة الوثوقية، والنمط الساخر، والأمثلة الطريفة، والأسلوب الغامض، وسحر البيان وغير ذلك، مؤثرات حقيقة في قبول الفكرة دون أن تكون هذه بذواتها معايير موضوعية لتصويب الفكرة أو تخطئتها؛ إذ مرجعية الصواب والخطأ إنما هي إلى المعاني المندرجة تحت الألفاظ، فلو أن الشبهة تجردت عن سحر البيان واطلع عليها الإنسان كما هي بمعناها المباشر المختصر لما كان موقعها من نفسه كموقعها مع البهرجة اللفظية، بل لعل بطلانها ينكشف بمجرد ذلك. اهـ[(٢)].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها؛ فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيها ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (ص٤٦٧).
(٢) «ميلشيا الإلحاد» (ص١٨٠).

وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا: الدرهم الزائف؛ فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطَّلعُ على زيفِهِ، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته، وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله.

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر، وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله، وكم ردَّ من الحقِّ بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح، وفي مثل هذا قال أئمة السنة -منهم الامام أحمد وغيره- لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت؛ فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهًا وتجسيمًا، ومن أثبت ذلك مشبهًا، فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقولُ هذا جَنى النَّحلِ تمدحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مدحًا وذمًّا وما جاوَزْتَ وصْفَهُما ... والحقُّ قَدْ يَعْتَرِيْهِ سُوءُ تَعَبِير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظرًا بعين الإنصاف. اهـ(١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص١٧٧، ١٧٨).

لا تكن ممن تستفزه البداءات:

ومما ينبغي أن يعلمه العاقل الفطن أن الباطل في أوله روعة ودهشة تنطلي على من قل حظه من العلم وضعف عقله، ولا يسلم العبد إلا بالثبات في الأمر بعد توفيق الله وعدم الاستفزاز بأوائل الأمور؛ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يشرح قول الإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن المفتون الذي ينقدح الشك في قلبه مع أول عارض من شبهة:

هذا دليل ضعف عقله ومعرفته؛ إذ تؤثر فيه البداءات ويستفز بأوائل الأمور، بخلاف الثابت التام العاقل؛ فإنه لا تستفزه البداءات ولا تزعجه وتقلقه؛ فإن الباطل له دهشته وروعة في أوله، فإذا أثبت له القلب ردَّ على عقبيه، والله يحب من عنده العلم والأناة، فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم، ويستيقن ما ورد عليه، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه؛ فالعجلة والطيش من الشيطان، فمن ثبت عند صدمة البداءات استقبل أمره بعلم وجزم، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش، وعاقبته الندامة، وعاقبة الأول حمد أمره، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها؛ وهي الفوت؛ فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره، ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[1]، وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أُتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما؛ فما أُتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثبات أولًا والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق. اهـ[2].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٢٥) (١٧٢٦٢)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٧٨).

خامسًا: التعامل مع الشبهات وفق قاعدة المحكم والمتشابه في الشريعة:

ومن المنجيات العظيمة في الوقوع في فتنة الشبهات والزيغ التعامل وفق قاعدة المحكم والمتشابه في الشريعة، والتي خلاصتها رد المتشابه إلى المحكم، والحذر من اتباع المتشابه بعيدًا عن المحكمات؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الآية [آل عمران:٧].

فمن تأمل هذه الآية وما تضمنته من «منهجية علمية قرآنية» في التعاطي مع نصوص الوحي فستنزاح عنه «أثقال الشبهات» وتتطاير «هباءً منثورًا»، ومن «غفل» عنها أو «تغافل» فسيظل مضطربًا حائرًا أمام سيل الشبهات والإشكالات والانحرافات.

«الوحي» -كما أخبر الله- فيه «النص المحكم» الذي يجب التزامه، «والنص المتشابه» الذي يلزم رده إلى «المحكم»، فإذا غاب عن الباحث قاعدة «المحكم» و«المتشابه» فلن يتميز له المراد الإلهي، وسيبقى مترددًا متذبذبًا يقفز مع كل أطروحة، ويربكه كل اعتراض.

ومن رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن جعل محكمات الكتاب غالبة على الكتاب؛ حيث وصف المحكم بأن ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم وما كلفوا من الفرائض والحدود وسائر ما يحتاجون إليه في عاجلهم وآجلهم، وإنما سماهن ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنهن معظم الكتاب، وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب؛ تسمي الجامع معظم الشيء أمًّا له، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة أمها.

فإذا علم هذا فلا يكفي أن يدعي الشخص التسليم لقراءته القرآنية دون ملاحظة هذه القاعدة العظيمة؛ إذ قد يكون متعلقًا بالنص المتشابه معرضًا عن النصوص المحكمات، ومتى ما تعلق المرء بالنص المتشابه دون المحكم كان ذلك أمارة على الزيغ،

والوقوع في حبال تبعيض الوحي، والتعلق بالنص الأقل حضورًا ووضوحًا على حساب النصوص المحكمة الواضحة، وقد تولى الله في هذه الآية الكريمة ذم من سلك هذا السبيل، كما حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا منهم؛ فقال بعد ذكره للآية المتقدمة: «**إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»[١] اهـ[٢].

يقول العلامة السعدي: يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد -ولن يوجد- له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق، وأن هذا ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره.

ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها حتى تضم إلى المحكم؛ فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة، طلبًا للفتنة وتحريفًا لكتابه وتأويلًا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأن كله حق محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمور النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:٧] أي: أهل العقول الرزينة.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٧٣)، ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) «ميلشيا الإلحاد» (ص١٨١، ١٨٢).

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية والقصود السيئة. اهـ[١].

سادسًا: الحذر من خطورة التسليم للمقدمات الفاسدة:

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الباب الحذر الشديد من المقدمات الفاسدة، والمغالطات المنطقية، وهي أدوات يستعملها أهل الزيغ والباطل في تمرير أفكارهم المغلوطة والتوصل إلى نتائج باطلة، وإن بدت للوهلة الأولى لبعض الناس في ظاهرها احتجاجًا علميًّا مقبولًا، فكشف هذه المغالطات وعدم التسليم لها يعصم العبد من الانجراف إلى نتائجها الوخيمة؛ إذ التسليم بالمقدمات الفاسدة يجر صاحبها -شعر أو لم يشعر- لتقبل نتائج وقضايا فاسدة، ففحص المقدمات والتأكد من سلامتها عملية في غاية الأهمية؛ فقد يتعجل المرء أحيانًا في نظره لبعض المقدمات وفحصها فيسلم لها دون استيفاء واجب النظر فيها، فيدخل عليه الخلل في نتائجه من جهتها ويصعب عليه في كثير من الأحيان ملاحظة أن الخلل إنما دخل عليه منها؛ يقول ابن تيمية: «فَابْنُ سِينَا أَصْلَحَ تِلْكَ الْفَلْسَفَةَ الْفَاسِدَةَ بَعْضَ إِصْلَاحٍ حَتَّى رَاجَتْ عَلَى مَنْ يَعْرِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ الطَّلَبَةِ النُّظَّارِ، وَصَارَ يَظْهَرُ لَهُمْ بَعْضُ مَا فِيهَا مِنْ التَّنَاقُضِ فَيَتَكَلَّمُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُ؛ وَلَكِنْ سَلَّمُوا لَهُمْ أُصُولًا فَاسِدَةً فِي الْمَنْطِقِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَلَمْ يَعْرِفُوا مَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ الْبَاطِلِ، فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى ضَلَالِهِمْ فِي مَطَالِبَ عَالِيَةٍ إِيمَانِيَّةٍ وَمَقَاصِدَ سَامِيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ خَرَجُوا بِهَا عَنْ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَصَارُوا بِهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، بَلْ يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ. اهـ[٢].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص١١٣).

(٢) «ميلشيا الإلحاد» (ص١٨٣).

المنجيات من فتنة الشهوات:

ذكرنا أن فتنة الشهوات يتولد عنها المعصية والمخالفة وانتهاك محارم الله عَزَّوَجَلَّ، ولكي يتمكن العبد من دفعها ويسلم من خطرها لابد له من أمور نذكر منها:

أولًا: الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وخشية عقابه:

وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الحديث: «**اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**»(١).

والخشية هي الخوف المقرون بعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال بعض السلف: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار به جهلًا»؛ فخشية العبد من الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم ما يعينه على ترك معصيته والحذر من مخالفته تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا إنما يكون باستحضار معاني الأسماء والصفات؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى -أَوْ: إِلَى- الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»(٢).

ثانيًا: محبة الله:

وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعصيته؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، كلما قوي سلطان المحبة كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى؛ فالمحب

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٢)، والحاكم (١/ ٥٢٨)، وحسنه الألباني في تخريج «الكلم الطيب» (٢٢٥).

(٢) **صحيح**: قال الألباني: رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٠) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وسكت عليه الذهبي، وأخرجه الترمذي (٢/ ٥١)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، ورواه البخاري مختصرًا جدًا (٤/ ٢٣٧) بلفظ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**». [«السلسلة الصحيحة» (٤/ ٢٩٩) باختصار].

الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه، وينبغي التنبيه هنا على أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه فحينئذ تستوجب هذه المحبة الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ الذي يجعل العبد يستحي من ربه فيجتنب مساخطه.

ثالثًا: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها واستحضار عقوباتها في الدنيا والآخرة:

ففي الدنيا زوال النعم، وحلول النقم، وظلمة القلب، وفقدان الأمن، وزوال الأنس، والبغضة في قلوب الخلق، ونسيان العلم، وتخلي وليه وناصره عنه، واستحواذ عدوه عليه، وزوال المهابة والعزة التي لبسها بالطاعة، وغير ذلك، أما في الآخرة فمن عقوباتها عذاب القبر، وأهوال القيامة، ودخول النار إن لم يعف الله عن صاحبها.

رابعًا: قصر الأمل وصدق التأهب للقاء الله عَزَّوَجَلَّ:

فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله وعكفت همته على محبته وإيثار مرضاته، فليس هناك أنفع للعبد ولسلامة قلبه من الشهوات من علمه بسرعة انتقاله إلى الدار الآخرة، وأنه كمسافر في ظل شجرة ثم راح وتركها، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقل حمله ويضره ولا ينفعه.

خامسًا: الاستقامة بالإتيان بالمأمور واجتناب المحظور:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه بحسب قيام العبد بالأمر يترفع عنه جيوش الشهوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وكما في القراءة الأخرى (يدفع) فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الإيمان وضعفه»[(١)].

سادسًا: العلم بالله وبأسمائه وصفاته:

ومن أعظم إن لم يكن أعظم المنجيات من الشهوات العلم بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليست حاجة الأرواح قطّ إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها ومحبَّتِه وذكرِه والابتهاج به وطلبِ الوسيلة إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه»[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى -كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[(٣)].

«فمعرفة الله تقوي جانب الخوف والمراقبة، وتعظم الرجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد، وتثمر أنواع العبادة، وبها يكون سير القلب إلى ربه وسعيه في نيل رضاه أسرع من سير الرياح في مهابها لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، والتوفيق بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله» اهـ[(٤)].

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص٤١).
(٢) «الكافية الشافية» (ص٣-٤).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٥٣).
(٤) «فقه الأسماء الحسنى» لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (ص١١).

بم يستقيم القلب؟!

«استقامة القلب، بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب؛ فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه، ما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه، ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص؛ جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع؛ أن من أحب شيئًا سواه عذب به ولا بد، وأن من خاف غيره سلط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب:

تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي؛ فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا...﴾ [نوح:١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال، ولا يحملا على علة توهن الانقياد.

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف ولا يعرضا لتشديد غال؛ فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بسالكه وما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين.

فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشامه، فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا أخذه من هذه الخطة فثبطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتى ربما ترك العبد المأمور جملةً، وإن وجد عنده حذرًا وجدًا وتشميرًا ونهضةً وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد وسول له أن هذا لا يكفيك وهمتك فوق هذا وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا ولا تفطر إذا افطروا وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لا يقربه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم؛ هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا يُنجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان» اهـ[1].

الحجب العشرة التي تحجب القلب عن الرب:

«**والحجب عشرة: حجاب التعطيل**، ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها؛ فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١٣).

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية؛ كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية؛ كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة؛ كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم، وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين المشمرين في السير عن المقصود.. فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحول بينه وبين هذا الشأن.

وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: **عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى**، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة» اهـ[(١)].

«والمقصود: أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه، فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٣، ٣٨٤).

بما لا يفيد، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له وغضبه ولعنته، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه، ولا تجدي عليه شيئًا، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية؛ تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب؛ يقدح في أصول الإيمان الخمسة؛ وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، فلغلظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يرى حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان، يعده ويمنيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان، فأسره وسجنه إن لم يهلكه، وتولى تدبير المملكة واستخدام جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بواب الغفلة، وقال: إياك أن نؤتى من قبلك، واتخذ حاجبًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحدًا يدخل علي إلا معك، فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب، فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر مع رقة الإيمان وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان أن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طي هذه الأكوان» اهـ[1].



(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).

الفهرس

المبحث الثاني: في بيان الهدية ومراتبها وسائر ما يتعلق بها

المبحث الثالث: في أسباب الهداية

المبحث الرابع: في موانع الهداية

المبحث الخامس: في القلب وأقسامه وسائر أحواله



